ليفي بروفنسال

حضارة العرب في الأندلس

ترجمة

ذوقان قرقوط

منشورات دار مكتبة الحياة
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

* في هذا الكتاب عرض موجز لحضارة العرب في الأندلس ، وإبراز نزيه للروابط التي كانت تربط تلك الحضارة بالشرق العربي . كما فيه اعتراف صريح لأثر الحضارة العربيّة عامّة على الحضارة الغربيّة المعاصرة .

* يتقصّى المؤلف في بحثه هذا شخصيّة الحضارة العربيّة الاسبانيّة ويبرز لها خواصها ببنائها الاجتماعي ومُثُلها الأخلاقيّة الثّقافيّة وارتباطها الوثيق بالرّوح العربيّة الأصيلة ، رغم بعد المسافة واختلاف التربة والمناخ بين صحراء العرب وبلاد الأندلس .

* دامت الأندلس بعد العرب زعيمة للفكر والمدنيّة واحتفظت بكامل اشعاعها ، فمنت سادتها الجدد ، وأضحت للغرب كما كانت أثينا لروما عندما غدت مقاطعة في امبراطوريتها . فرغم كونها مغلوبة تستطيع

أن نقول بأنها استولت هي نفسها على قاهريها .

* لم تقف الأندلس عند الاقتباس عن حضارة بغداد ، بل أخذت تعمل على أن يشع نفوذها كأمة عظيمة متمدنة ، إلى خارج حدودها .

* هذا ما يبينه المؤلف في هذا الكتاب ، وهو أعمق من تعرض للحضارة الأندلسية ، وأنزه من ذكر فضلها وغايتها .

الفصل الأول

الغرب الإسلامي

والحضارة العربية الاسبانية

الغرب الإسلامي
والحضارة العربية الاسبانية

يبدو ان عدداً ضئيلاً فقط حتى الآن ، من بين مؤرخي الاسلام والمسيحية في القرون الوسطى ، اعتقدوا بأن من الواجب النظر بعين الاعتبار الى تعبير ، هو ، مع ذلك . سهل وكافي الدلالة . هذا التعبير : « الغرب الاسلامي » ، الذي حاول المؤرخون ، بادىء ذي بدء ، الدفاع عنه وتسويغ استعماله الجديد ، فينطبق على الكتلة الجغرافية المتناسقة تناسقاً كافياً ، التي ستشكلها افريقيا الصغرى وشبه جزيرة ايبيريا على تخوم المحيط وعلى جانبي الطرف الاقصى من عالم البحر الابيض المتوسط .

ان هذا الاصطلاح ، من شأنه ان يثير ، في شيء من الوضوح ، ولو في مسامع قليلي الاطلاع ، جملة تتصف بتناسق نسبي ، خليطاً يمكن للعناصر

الاساسية التي يتألف منها ، ان تتميز بسهولة كافية . فالمغرب الاسلامي هو قطعة من العالم القديم توطد فيها الاسلام ، بما حمل معه الى اهلها من بناء اجتماعي ومن مثل اخلاقي ومن ثقافة يمثلها ؛ هذه القطعة هي في نفس الوقت ، ارض قصيّة ، بعيدة عن المركز ، بالنسبة الى المناطق التي شهدت ظهور الاسلام ومن ثم مطلع وثبته الرائعة .

كان الناس الى عهد قريب — وما زال بعضهم حتى الآن يسمونها : « المغرب » وهذا تعبير يبدو ، لأول وهلة ، مماثلاً تماماً لتعبير « الغرب الاسلامي » ومن شأنه انه لم ينتظر عصرنا هذا ، ليدخل في اصطلاحات العرب الجغرافية . فهل نحن بحاجة الى ان نبين ان اسم « المغرب » الذي كان في الاصل يعني بلاد البربر واسبانيا معاً ، كما يبدو ، لم يعد يشمل تونس الحالية ، افريقيا القديمة ، بل شبه جزيرة ايبيريا ، اندلس العرب ، وانما تقلص معناه بسرعة بحيث لم يعد يعين اليوم إلا غرب افريقيا الشمالية ؟

من الممكن القول بأن في ذلك جدلاً لفظياً بحتاً ! على ان الامر الذي كان طبيعياً — كما هو معلوم — ان افريقيا الشمالية واسبانيا قد نشأت بينهما علاقات سياسية وصلات ثقافية يقتضيها الجوار ويسهلها ، ولا سيما عندما راحت العقيدة الدينية المشتركة توجه بعض مطامع البلدين ، بل وتوحد بينها . ولكن ذلك لم يحل دون قيام كيان منفصل لكل من البلدين ، وأن يكون لكليهما انظمته المتميزة ، وسلالاته التي تعادي ، احياناً ، السلالات الاخرى ، وأن يكون لكليهما ، بعد هذا كله ، مثل أعلى لم يكف الاسلام دائماً ، لجعله مشتركاً بين البلدين فمن الثابت انه ليس من المحتمل ان تكون هذه المزاعم خطأ كلها . كما

انها لا تمثل ايضاً الحقيقة التامة . « فالغرب » يؤلف وحده من ضمن العالم الاسلامي ، على احد اطرافه القصوى ، عالماً قائماً بنفسه ، ملاصقاً لأوربا المسيحية ، بعيداً ومنفرداً عن الشرق تفصله عنه المسافة والحواجز الطبيعية ، وكثيراً ما كانت هذه الحالة الراهنة شديدة الوطأة على مصائره السياسية وأكثر من ذلك ايضاً ، مؤثرة في نظامه الاجتماعي وثقافته .

ولكي يشعر المرء حق الشعور بأن بين ما كان في مراكش وجنوب اسبانيا وما هو باق الى الآن ، ليس فقط مجرد مظهر بسيط ، مبهم ، من مظاهر القرابة بينهما ، ينبغي له ان يكون قد عاش سنين طويلة في بلد كمراكش لا يزال يحتفظ بطابع حضارته الوسيطة كما هو ، وأكثر من تردده على جنوب اسبانيا وان يكون شغفاً يتفحص الآثار العربية في اشبيلية وقرطبة وغرناطة من خلال الجو الرقيق المؤثر الذي يغمرها . وعليه ، بصورة خاصة ، ألا يتنكر للحدس الحي الذي يرسمه في الذهن احياناً طول معاناته للنصوص الاصلية وتأثره اللاشعوري بها ، وألا يقص الرؤى العابرة التي ترتسم ، على أثر اتصاله بالوثائق التي ينشدها ، ثم توضع بوضوح في صور حاضرة ومألوفة . وانه يشعر ، عندئذ ، شعوراً غامضاً في البدء ، أن هذه القرابة ليست طارئة ولا يمكن ان تكون كذلك : سرعان ما تتوالى وجوه الشبه وتتحدد ثم تفرض نفسها . فالغرب الاسلامي بمعطفيه ، الافريقي والاوربي ، يبدو ، شيئاً فشيئاً ، في نظر العصر الوسيط ، من خلال ألوانه الحقيقية ، عارياً من الصور الغبراء التي كومها على تخومه مؤرخو الكتب الصفراء ، الذين اهتموا فقط بوقائع مختلف السلالات . وان المرء ليكتشف ، على الرغم من صروف الدهر ، بأن عاصمة هذا الغرب الفكرية بقيت في البدء ، قبل الانتهاء من اعادة الفتح المسيحي في اسبانيا ، قرطبة

ومن ثم في عواصم الاقاليم ، واخيراً في غرناطة . ويلاحظ بأن ارض الاندلس ، أياً كان مركزها السياسي ، لا تفقد ابداً منزلتها كزعيمة للفكر ؛ واحتفظت بكامل اشعاعها ، بعد ان اخضعها ، في قلب الاسلام نفسه ، ملوك افريقيون ، وفتنت بسرعة سادتها الجدد الذين عانوا سحرها فجعلوها محل اقامتهم المفضلة . وعلى هذا النحو سيكون ، فيما بعد ، مصير اولئك الفاتحين القساة من القشتاليين فيها . فستكون الاندلس ، سواء لهؤلاء ام لأولئك ، ما كانته اثينا بالنسبة لروما عندما غدت مقاطعة من الامبراطورية . ويجدر بنا ان نتذكر كلمات الشاعر اللاتيني ونحن ننقلها الى هنا : ان اليونان المغلوبة قد استولت هي نفسها على قاهرها الفتاك Craecia capta ferum victarum cepit !

ان تعبير « الغرب الاسلامي » قد لا يجد خصوماً له من اجل تعريفه الخاص فحسب . بل ان له خصوماً آخرين ، ما زالوا كثيرين جداً في اوروبا ، حتى بين الاخصائيين المرموقين في دراسات العصور الوسطى . يرون ان افريقيا الصغرى واسبانيا ، كليهما ، لا يشكلان مطلقاً سوى امتدادات شاسعة وطلال شاحبة للشرق الاسلامي ، هذا الشرق الذي يجب الاعتراف بأنهم لا يزالون يجهلونه تمام الجهل ولا يقدرون حق التقدير الدور الراجح الذي لعبه خلال العصور في اقتصاد حوض البحر الابيض المتوسط منذ انهيار العالم القديم حتى الفترة التي شهدت غروب القرون الوسطى واولى تباشير النزعة الانسانية الناشئة . ونرى ان الحكم السابق نفسه الذي كان يجعل مؤرخين كثيرين جداً يقدرون بيزنطة « بالمقارنة بذكريات روما المظفرة » يدفع هؤلاء المؤرخين الى ألا يروا في المغرب والاندلس ، في العصر الوسيط سوى استمرار هزيل ، في انحطاط سياسي

عميق ، لعصر الاسلام الذهبي في الشرق الذي دونت وقائعه في سورية ومصر وبلاد ما بين النهرين . ولا يخطر لهؤلاء المؤرخين لحظة واحدة ، لا سيما فيما يتعلق بأسبانيا ، ان يحاولوا اظهار قسطها الهائل في تطور العالم الاوربي الغربي ، منذ القرن الحادي عشر وفي تحسين بعض نواحي الحياة المادية ، وبخاصة فيما فرضت عليه رويداً رويداً ، من شعور بجمال للحياة جديد ، هذه الحياة التي كانت تسيطر عليها حتى ذاك الحين ، وفي رهبة المجهول ، صوفية ثقيلة التشاؤم .

وان المرء ليلاحظ هكذا اي مقدار يوحيه ويقتضيه من تطورات هذا التعبير « الغرب الاسلامي » والاعتبارات الاولى التي نحاول جاهدين أن نبرهن بها عليه . ومن الواجب عدم التردد في تسمية الحضارة التي ازدهرت فيه حتى القرن الخامس عشر « بالحضارة العربية الاسبانية » فانها إذ نشأت نتيجة لمؤثرات مختلفة في شبه الجزيرة نفسها ، قد طفحت بكاملها وعلى نطاق واسع على المغرب ؛ ولم يكن الفن الذي يدعى بالفن « المغربي -- الاسباني » hispano - maresque بواحد من اجل مظاهرها فحسب ، كما يظن احياناً . فتلك هي العناصر الرئيسية المؤلفة لهذه الحضارة العربية في اسبانيا والخطوط التي تمنحها اصالتها في مختلف الميادين ، ما نحاول ان نعينه هنا في نظرة عامة . غير ان هذه الدراسة لا تكون مقبولة اذا لم تصحبها تحريات جانبية : لنعرف من جهة ما هي التأثيرات ، التي تكاد تكون مباشرة ، التي مارسها الشرق ، في داخل الاسلام نفسه ، على الغرب ، او التي أثر بها الغرب في الشرق ، على نطاق اضيق بلا شك ، كما يستشف ذلك ؟ ولنتبين ، من جهة ثانية ما هو التداخل المتبادل بين الاسلام الاسباني والمسيحية الوسطية ؟ تلك

هي المشاكل الخاصة التي نحاول ان نجد بعض عناصر حلها ، طرحناها بإيجاز .

ولعله من الصعب ، بل قد يكون من عدم الروية ، ان ندخل في بحث هذه الحضارة الاسبانية العربية ، دون ان ننظر اليها اول الامر وبكثير من التمحيص ، من خلال اطارها الطبيعي الاصيل ، او دون ان ننبه ، ولو بصورة موجزة ، الى تتابع الظروف السياسية التي سهلت نشوءها وازدهارها . فان لم نفعل ذلك فاننا قد لا ندرك ، إلا بقليل من الوضوح ، مدى الانتشار المتزايد الذي بلغته سواء في حدود مجالها الخاص او في شبه الجزيرة او في افريقيا الشمالية ؛ وقد لا ندرك كذلك المؤثرات المختلفة التي قبستها من الشرق ، او بالتالي السيطرة غير المباشرة ، التي كانت لها بدورها ، على غرب اوربا .

* * *

لعلنا في غير حاجة ، إذ يكاد يكون متفقاً عليه ، الى ذكر التعقيد الجغرافي في حديثنا عن شبه الجزيرة الكبرى التي تحتضن اسبانيا والبرتغال الحاليين ، إذ ما من بلاد تؤلف كتلة كهذه في وضوح حدودها الطبيعية ، وما من بلاد ايضاً تفوق هذه البلاد فيما تبديه من متناقضات داخلية في شكلها الطبيعي وفي مناخها ، وخصب ارضها . وقد اشرنا ، من جهة اخرى ، مراراً من قبل الى وجوه الشبه العميقة التي تتجلى في التشكل الارضي لكل من جنوب اسبانيا وشمال مراكش . هذان البلدان يفصلها حاجز مائي عميق ولكنه ضيق جداً ؛ إلا أن المرء لا يستطيع ، وهو يعبر هذا الحاجز في اي من جهتيه – ونعني به مضيق جبل

طارق – إلا أن يؤخذ بما يرى من وحدة ، تكاد ان تكون تامة بين مظهري البلدين . فهنا وهناك سلاسل جبلية عظيمة ، تغوص آخر ثناياها في البحر المتوسط ؛ ونرى في هذه الجهة ما نراه في تلك من مزروعات ومن بساتين الاشجار المثمرة وحقول البرتقال والزيتون ؛ وان التشابه ليزداد وضوحاً ، اذا جاز لنا القول ، فيما وراء هذه الجبال ايضاً ، فالفيغاس « Vegas » الاندلسية الغنية لها ما يقابلها في سهول « الغرب » Gharb المراكشي الخضراء ؛ واذا توغلنا الى ابعد من ذلك ، نجد ان ما يقابل مرتفعات المانش la Manche وقشتالة الجديدة Nouvelle Castille هي مسطحات مراكش الوسطى إذ أن الفنيين ، لشد ما بينهما من تشابه متميز ، ما زالوا يطلقون على هذه المسطحات الاسم الاسباني « ميزيته Meseta » . وماذا نقول اذاً عن تجانس التجمعات المدنية ؟ فما من مدينة من مراكش ، على الاطلاق ، يأهل ، ولو جزءاً منها ، الموريسك Morisques المسلمون ، المطرودون من اسبانيا ، إلا وتحتفظ بشغف حتى الآن بطابع مدينتها الاندلسية .

أما الدخول الى شبه الجزيرة الاسبانية الايبيرية فانه يتم في اغلب الاحيان عبر احدى جهتي سلسلة البيرينيه . وما إن يخطو الانسان الى الامام نحو الجنوب حتى يؤخذ بالتضاد بين مناظر البلاد ، تضاداً يبلغ احياناً حد التنافر . وما يلبث جفاف السهل القشتالي المظيم أن يمحى شيئاً فشيئاً ؛ ومن ثم يتهلل وجه اسبانيا العليا الصارم ليبتسم ، عندما يصل المرء الى الاندلس ، ارض المور Maures المفضلة الذين احتلوها مدة ثمانية قرون . انني لم اتحسس هذا السياق من المشاعر ، عندما وطئت قدماي ارض اسبانيا ، لأول مرة ، قادماً اليها من اقصاها الجنوبي ،

مبحراً مباشرة من مراكش ، تلك البلاد التي بقيت محافظة ومـا تزال متمسكة ، بحمية شديدة ، بالاسلام . ومع هذا فلم يداخلني ابداً الشعور بانني قد انتقلت الى عالم آخر . فالأودية العميقة والضياع المعلقة في اعالي السفوح والجو ومشهد الشارع في المدن الصغرى ، حتى وأوضاع الناس ، كل ذلك يتشابه تشابهاً عجيباً . فلولا اللباس الذي يرتديه الاندلسيون اليوم وكلامهم لأصبح شعور المرء بأنه لم يعبر ممراً بحرياً وأنه مـا يزال في افريقيا وهماً تاماً . اننا نحس منذ البداية بأن حضارة مشتركة في اطار طبيعي يقدم وجوه شبه عظيمة الى هذا الحد ، تتوفر لهـا جميع الشروط لتقوم بدورها .

وزيادة على ذلك فان افريقيا الصغرى قـد وجدت نفسها مدعوة ، منذ ان وضع العرب يدهم على اسبانيا ، لكي تلعب دوراً هاماً في عملية الاستيطان في هذه البلاد : إذ أن العلاقات التاريخية بين البلدين في العهد الاسلامي ترجع، هكذا ، كما نرى ، الى عصور الاسلام الاولى ، منذ نهاية القرن الاول الهجري . ذلك ان الاندلس سرعان ما استقبلت ، بعد ان فتحها برابرة مراكش ، بادىء ذي بدء ، لحساب الشرق الاسلامي ، كثيراً من العرب الاقحاح ، وفي نفس الوقت ، عدداً اكبر من الافريقيين ايضاً [٢] . ولم يلبث هـؤلاء وأولئك ان تمازجوا ، اللهم إلا اذا استثنينا بعض الجزائر ، الصغيرة ، الجبلية ، التي بقي سكانها زمناً طويلاً ، مستعصين على التحول ؛ وقد شكل اولئك الوافدون نواة الارستقراطية العربيـة والبورجوازية في المدن ، وسرعان ما اخذ عددهم بالازدياد بفضل رصيد هـام جداً ألا وهو : المسلمون الجدد ، أعني من سكان شبه الجزيرة ، الذين اخذ دخولهم في دين الفاتحين يتزايد يدخلون بمحض ارادتهم ، في

اغلب الاحيان ، طمعاً في التخلص من الجزية والاستفادة من ظروف مادية افضل . وقد نتج عن ذلك « ان الصلات ، بين المسلمين القدامى والمسلمين الجدد ازدادت ، على مر الزمن ، توثقا وتماسكاً بفضل الزواج . لذلك ، فان عرب اسبانيا الذين كانوا ، في العصور التي اعقبت الفتح ، يفخرون اعظم الفخر ، بتحدرهم من اجدادهم في بلاد العرب او سوريا ، كان يجري في عروقهم جميعاً جزء وفير من الدم الاسباني . إذ مـا من شك ، انه كان قد حصل ، في ظل الخلافة في قرطبة ، تمازج عرقي هام ، في المدن على الاقل ، بين العرب الخلص والبربر والمولدين » . هذا ما كتبته في مؤلف صدر حديثاً (٣) .

ان امامنا ها هنا مجالاً ، في دراستنا للمؤثرات التي سيؤدي تشابكها الى ولاء حضارة عربيـة اسبانية اصلية ، لنعين نصيب عرب المشرق ، المهاجرين الى اسبانيا وما يقابله من نصيب المولدين من السكان الاصليين ، في تناسق هذه الحضارة . إلا أننا نقتصر الآن على التنويه اللازم بالمردود الخصب ، الناجم عن « التمازج العرقي » الذي أشير اليه قبيل قليل . فمنـذ القرن الثالث الهجري على وجـه التقريب او بدءاً من القرن الرابع ، بالتأكيد اصبح هناك ، عدد من السكان المسلمين الاسبانيين ، يشكلون ، بعد ان تكيفوا في موطنهم الجديد ، نواة هامة في مجموع اهالي البلاد العام ، الخاضعين للاسلام ؛ هـذه النواة كانت تتزايد باطراد سواء بالمؤمنين الجدد او من جراء تيار الهجرة المتدفق الى شبه الجزيرة الذي سيستمر طويلا يجذب الراغبين فيها او المكرهين على النفي اليها . وقد اخذ هؤلاء الاهالي من المسلمين الاندلسيين باستشعار اصالتهم الخاصة والواقعية سواء في مراميهم السياسية ام في حيـاتهم الفكرية على نحو اشد ايضاً . ولم يلبثوا ، وهم

المتعلقون بالاسلام وقواعده ومثله الديني الاعلى تعلقاً عنيداً ، أن تميزوا ، على نحو كاف ، في اهم مظاهر حياتهم اليومية : في طريقة الملبس والاساليب المهنية والزراعية ولهذا سرعان ما تبدو ، للأعين بقية العالم الاسلامي ، على انهم ، ان لم يكونوا غرباء عنه ، فانهم على الاقل انما يمتون اليه بقرابة بعيدة ، انهم أشقاء اصبحوا بعيدين بسبب من تراخي الروابط العائلية والاقامة خارج المركز . ثم تأتي الظروف السياسية لتشجع من جهتها ايضاً على هذا النوع من القطيعة الروحية ، التي تثبت هكذا شيئاً فشيئاً ؛ ذلك ان تفكك الدولة العربية الاولى في الشرق أدى الى فصل اسبانيا عن سادتها البعيدين وما ان جاء اليها احد ورثة اولئك السادة الذين سقطوا من السلطة حتى قدمت نفسها اليه ومنذ ذلك الحين منحت ذاتها صفة المملكة الخاصة ، المستقلة عن كل من افريقيا وآسيا .

* * *

حتى نهاية القرن الثامن ، لم يكن تاريخ اسبانيا الاسلامية في الواقع ، اقل غموضاً من تاريخ بلاد البربر في الغرب . فالذين كانوا يعملون او يحاولون العمل على احترام سلطة الرئيس المشترك المقيم في دمشق هم ولاة من العرب ؛ تلك السلطة التي ما فتئت ان صارت اسمية . ولم يكن الغرب الاسلامي يشكل في ذلك الوقت إلا مجموعة من المقاطعات في دولة متسعة الارجاء لم يطل بها الامر حتى تفككت اوصالها وتجزأت الى امارات مستقلة . واقتنص مؤسسو الممالك حصة الاسد . واذ اسقط رد الفعل العباسي، البناء الاموي ، فان سوريا ودمشق قد اتجهتا جهة بغداد والعراق . ولازمت هذا التغير في نظام الحكم ، بالضرورة ، اضطرابات عديدة .

وارتحل عن المشرق كثير من المتذمرين ومن ذوي المراتب العربية القدامى ومن الذين فقدوا امتيازاتهم واعطياتهم ، يجذبهم المغرب . وهكذا قدم من هناك احـد امراء البيت المرواني ، يسعى ، في الطرف الاقصى الآخر من العالم الاسلامي ، وراء طالعه . كانت مراكش إذاً مقراً جميلا ، للاستيلاء إلا ان الاسلام كان قد اصيب فيها بنكسة عابرة . ذلك ان القبائل التي ما كادت تدخل في الاسلام حتى أثيرت بدعاية الخوارج ، قد تمكنت من استعادة حريتها القديمة بقوة السلاح فاستيقن القادم الاموي ، عبد الرحمن حفيد الخليفة هشام من ان الرياح غير مواتية له ابداً في افريقيا ، ولذلك يمم وجهه شطر اسبانيا فاستولى على هذه البلاد وأطاح بالحكم العربي الذي كان يديرها مستقلا بصفة امير من قرطبة ولما تزل سلطته واهية . وأسس تلك الدولة الاموية التي اصبحت ذات مجد أثيل بل على الاصح ، انــه اعاد في الطرف الاقصى من الغرب الاسلامي ، بنـــاء دولة اجداده في دمشق . وسقطت قرطبة في حوزته منذ عام ٧٥٦ أي بعد مرور اقل من نصف قرن على دخولها في سلطة الفاتحين العرب : فجعل منها عاصمته واجتهد في ان يضفي عليها مظهر العاصمة الأم ، التي طرد منها . وقـــد سبق ان لقحت اسبانيا ، قبل قليل ، بقدوم جند Baldj « بتقليد سوري » وأخذ يتغلب في البلاد في ظروف سنعود الى بحثها .

وقدم الى ما وراء المضيق . شرقي ، فارّ كذلـك من سلالة الرسول ، هو ادريس يحاول حظه فابتسم له ؛ الامر ، الذي سيساعد ابنه من بعده ، ادريس الثاني ، في عام ٨٠٨ ، على تأسيس مدينة فاس التي أعدت لتكون عاصمة لملكه . وأسكنها عناصر مدنية أجليت من مقارّها الخاصة على اثر

بعض الظروف السياسية : اولهم من اهل القيروان ، جاءوا اليها من افريقية Ifrikiya التي ما زالت مشبعة بالمؤثرات الشرقية ؛ ثم تلاهم المرابطون ، من قرطبة ، الذين أجلاهم عن اسبانيا عام ٨١٧ الامير الاموي ، الحكم الاول ، فانتهى تطوافهم في فاس بينا استمر فريق منهم في سيره ، كان أبعد همة من رفاقهم التعساء فاجتاح الاسكندرية على حين غفلة واخيراً انتهى الى الاقامة في جزيرة كريت حيث اقلق سلطة بيزنطة سنين عديدة (٤) .

ثم يأتي بعد ذلك القرن التاسع حاملاً معه لاسبانيا المسلمة وكذلك للمغرب ايضاً عصراً شديد الاضطراب . ويبذل حكام قرطبة جميع قواهم لاعادة الهدوء الى ممتلكاتهم . إلا ان حكم عبد الرحمن الثاني جاء متوافقاً مع فترة كافية من التهاون النسبي حيث تكشفت ، كما سنرى عن فاعلية فكرية استثيرت بفعل المؤثرات العباسية غير المباشرة اذ ان الامراء الامويين اخذوا يواجهون مؤامرات خفية ألبت عليهم اكثرية رعاياهم : وكان هؤلاء الخارجون على سلطتهم كبار قادة الارستقراطية العسكرية من الجند وسكان الجبال من البربر الذين بسطوا يد العون ، شأنهم في ذلك شأن عرب السهول ، لتأييد الحركات القومية التي شنها حديثو العهد بالاسلام بمساعدة عناصر الشعب من الجماعات المسيحية المستعربة Mozarabes . وكثيراً ما كان الخطر ماحقاً فنرى امراء قرطبة يغالبون ، على قدر استطاعتهم ، اشد الصعاب فتكاً . وهكذا فان تاريخ البلاد السياسي كان يبدو كأنما يخيم عليه تهديد الرعايا المولدين والمسيحيين ودائم التعرض ايضاً للأخطار التي يستثيرها أحفاد العرب والبربر . لهذا فاننا في غنى عن الاشارة الى ان الثقافة الأندلسية كذلك قد عانت في نفس الوقت بعض الاسترخاء : اذ انها كانت ، بالكاد ، قد تجاوزت سن التكون والنمو .

غير ان الوضع السياسي اخذ يتبدل منذ سني القرن العاشر الاولى . ذلك ان هذا القرن سيسجل في الواقع ، ذروة الحكم الاموي في اسبانيا ، مقترناً باسم عظيم هو اسم عبد الرحمن الثالث ، الناصر ، فان حكمه الطويل يقابله في اخبـــار مسلمي شبه الجزيرة ، ازدهار رائع في جميع مظاهر الفكر ومع هذه الفترة من الاستقرار السياسي والسلام الداخلي لم يكن لها مثيل حتى ذلـــك الحين . وفي ذات الوقت انطوى الغرب الاسلامي على نفسه Pour ainsi dire — ذلك ان جزءاً كبيراً من مراكش اصبح يدين بالتبعية المباشرة لقرطبة ، وقطع الجسور الواهية التي كانت تربطه ، نظرياً ، ببقية العالم الاسلامي . وأبلغ دلالة على هذه الانطواءة نجد بيانها في قرار عبـــد الرحمن الثالث في عـــدم احترام ما كان يدعى « رمز الخلافة [٥] » ، شأنه في ذلك شأن فعل أسلافه حتى الآن ، وذلك بفصل الدولة الاموية الاسبانية عن باقي « دار الاسلام » التي كانت كلهـــا ، من حيث المبدأ تخضع لسلطة الخليفة القائم الروحية ، زعيم الاسلام . كان الاستمرار في ذكر اسم الخليفة المقيم في بغداد لا اسمه بالذات يزعج هذا الامير العظيم ، في خطبة الجمعة التقليدية . لذلك فانه انتحل الألقاب السامية التي كان يحملها منذ قرنين ماضيين اجداده في دمشق : لقب الخلافة وامير المؤمنين [٦] . فلم يكن هـــذا العمل لمجرد ما للرمز من قيمة لا ولا مدى سياسياً بسيطاً ؛ وانما يبدأ منذ هـــذا التاريخ ، في الحقيقة ، رقي الحضارة الاسبانية — العربية الاصيل التي تستمر في تألقها على مر العصور القادمة ، تلك الحضارة التي بقيت حتى ذلك الوقت مفعمة بالمؤثرات الشرقية .

كان قرار خليفة قرطبة الجديد الذي اتخذه : سواء في اعلان استقلاله الدنيوي ام في صدارته الروحية ، في وجه بقية العالم الاسلامي ، قـــد

أملته عليه بصيرته الحذرة — على وجه الدقة ، على أثر ظهور الحركة الفاطمية وانتصارها المظفر في شمال افريقيا . ذلـــك ان كثيراً من بلاد الاسلام شهد في هذا العصر انفجار نوع من حُميَّا المذاهب الدينية اذ ظهرت الى الوجود عقائد سرية جديدة وكانت تستخدم في اغلب الاحيان وسيلة او مرتقى لثورات سياسية . فبعد ان أتم الفاطميون فتحهم الجديد ، مصر ، وأغرتهم على اتخاذها مقراً نهائياً لهم اصبح هؤلاء الحكام الجدد لافريقيا ، اذا استووا سادة على افريقيا الصغرى وصقلية ووادي النيل كله ، سيشكلون خطراً جسيماً وداهماً على الدولة الاموية في اسبانيا . لهذا كان على امير قرطبــة العظيم أن يهتم بشتى الوسائل ليتجنب الخطر الفاطمي الذي بات يخشاه وهو الامير الذي كان يمثـــل ، في الغرب ، تقاليد الاسلام الاولى والسنة الدينية الصحيحة معاً وقد اصبح سيداً في مملكة واسعة الارجاء ، غنية ، آهلة بالسكان ، عاد السلام يرفرف عليها وأخذ مناهضوه في التقلص شيئاً فشيئاً فان لم يسهر عليها ، سهراً حازماً يطغى عليه الفاطميون الذين بثوا فيها خفية دعاتهم ودعاويهم وانه ، عندما اتخذ قراراً ليس فيما يتعلق بالاحتياطات العسكرية اللازمة للأمن والتي يستدعيها الوضع الخطر فحسب وانما ، بانتحال صفة الخلافــة السامية ايضاً ، قد خلق من اسبانيا بلداً اسلامياً جديداً ، مملكة متينة البنيان متحررة من آخر ما كان يربطها من الالتزامات ، حتى ذلك الوقت ببقية العالم الاسلامي ، دولة قوية تستطيع دول اوروبا المجاورة التعامل والتداول معها . فان باباً جديداً للمخالفات السياسية والمبادلات الصناعية قد انفتح اذاً ، وكذلك ايضاً — كما نستطيع التخمين للتبـــادل الفكري ولكي تقوم المؤثرات الحضارية بدورهـــا المتبادل .

ان اعظم متمم لهذا التقليد في تشجيع الثقافة الذي بدأه عبد الرحمن الثالث هو ابنه وخليفته الحكم الثاني كما سنرى . وقد جاء متأخراً الى العرش فكانت مدة حكمه قصيرة جداً . أما رجل التوسع الاموي وأشد الامويين فاعلية في ذلك فانه الدكتاتور المنصور بن ابي عامر الذي يأتي بعد قليل : ذاك الشهير في أخبار اسبانيا المسيحية وأناشيدها الرقيقة . ففي ظل حكمه الفعلي توصلت سلطة اسبانيا العربية الى قمة مجدها في العالم الغربي . ومن ثم ما لبثت ، بعد موت المنصور بسنوات قليلة ، في مطلع القرن الحادي عشر ، ان قامت فجأة ، حرب اهلية لم يسبق لها مثيل ، أطاحت عاصفتها الى الابد بالبناء الذي أقامته المملكة الاموية وأجلته عن قواعده ؛ وذلك على أثر تسرب القواد البربر والصقالبة ، تسرباً غير محدود الى ادارة شؤون الدولة . وهكذا فقد تشكلت في كل جهة من جهات شبه الجزيرة ، امارات مستقلة ؛ وسرعان ما أمسك حكام هذه الامارات – الذين يدعون بملوك الطوائف – بعضهم بخناق بعض وألحق بهم ، الاقوياء منهم ممتلكات الضعفاء او أخضعوهم لولاء مهين وذي تكاليف باهظة . وكانت موجة « اعادة الفتح » المسيحي التي عرف الامراء الأول ، والامويون الأخيرون ، بقوتهم ، كيف يحبسونها طيلة قرن كامل ، قد اخذت في ذات الوقت ، تتقدم ببطء وانما بقدم ثابتة . وأفاد من ذلك الوضع المضطرب أمير قشتالي عظيم ، اسمه الفونس السادس برباطة جأش وصلابة لا نظير لهما ذلك الامير الذي يختفي ظلماً وراء شهرة السيد كامبادور ، قائده المتمرد . وأخيراً سقطت في عام ١٠٨٥ طليطلة عاصمة القوط الغربيين القديمة في يد هذا الامير وغدت من جديد مسيحية الى الابد (٨) وهي التي أصبحت ، فيما مضى ، مركزاً من أكثر مراكز الحضارة الاسبانية – العربية اشعاعاً .

وعلى عكس ما قد يحق للمرء ان يتوقعه ، فان الثقافـة الأندلسية لم تكن بلا ريب ، في يوم من الايام ، أكثر ازدهاراً وخصباً منها خلال هذا القرن الحادي عشر وهو ، مع ذلك القرن المترع بالاضطرابات السياسية ، قد هزته في أعماقه المنازعات الداخلية والتقدم الثابت في حركة « اعادة الفتح » المسيحي . وقد أتمت اكثر عواصم المقاطعات اهمية ، بمـا لها من فاعلية فنية وأدبية تهاوي قرطبة الذي بات نهائياً تقريباً . وغـدا بلاط ملوك المسلمين في كل من طليطلة وبداجوز Badajoz وفلنسية ودانيـا والمرية وغرناطة وعلى الخصوص في اشبيلية ، جميعها على حد سواء أماكن لاجتماعات أدبية يتحلق فيها الشعراء والادباء والفنانون والعلماء والفلاسفة والاطباء واخصائيون حقيقيون في العلوم ويعملون ، في ظروف مادية ميسرة حول امراء ، حماة مستنيرين للأدب والعلم وجدوا في صحبتهم خير عزاء لمشاغلهم اليوميـة في ادارة الحكم . حقاً انه عصر انحطاط سياسي عميق وانما يلازمه تجدد في نتاج الفكر لا مثيل له ، والامثلة على اوضاع مماثلة كثيرة سواء أكان في داخل العالم الاسلامي ام خارجه .

وقد هبط خبر سقوط طليطلة على اكاديميـات الامراء هـذه هبوط الصاعقة اذ هوى بالامراء المسلمين الى الارض ، اولئك الامراء الذين بددوا قواهم ، بعضهم ضد بعض ، في مشاحنات دامية وأفرغوا رصيدهم المخصص للحرب وأثقلوا كاهل رعاياهم بمطالبهم الاميرية . وعنـد ذلك فقط تبدت في نظرهم ، مراكش ، مراكش التي لم تكن تبدو ، أغلب الاحيان في نظر اسبانيا ، حتى ذلـك التاريخ إلا في ثوب البلد المتأخر تتلوها في مضمار الحضارة ، من بعيد ، لا تصلح إلا الى تغذية جيوشها بالمتطوعين فاذا بهـا الآن تقوم ، في نظرهم بدور المنقـذ . وكان الصحراويون الذين قدموا من

مناطق قاحلة في الموريتانيا قد أقاموا فيها ، قبل ذلك بوقت قصير دولة هي دولة المرابطين . وكان أميرهم يوسف بن تاشفين قد انتهى ايضاً الى فتح المغرب وتنظيمه . فالى هذا الامير اضطرت الاندلس ان تتوجه ، طوعاً او كرهاً ، وان كان عملها هذا لم يخل في الحقيقة من بعض التأفف ، لتتوسل من اجل دفع الخطر المسيحي الداهم أكثر من أي وقت مضى .

كان هذا العمل — اذا امكننا القول — عندئذ ثأراً سياسياً لأفريقيا المسلمة من اسبانيا المسلمة ، ولكنه — بالنسبة للحضارة — كان ايضاً بداية سيطرة جديدة للثقافة الاندلسية على مراكش على نحو اقوى من اي زمن مضى . وقد سدد يوسف بن تاشفين ، الذي قبل العبور الى اسبانيا لنجدة الامراء المسلمين ، ضربة دامية للجيوش المسيحية في هزيمة الزلاقة في ٢٥ تشرين الاول من عام ١٠٨٦ اي بعد سقوط طليطلة في يد الفونس السادس بعام واحد ، غير انه لم يحسن الاستفادة في الحال من هذه الهزيمة ضد المسيحية . وكان لهذا النصر الذي احرزه الاسلام صدى عظيم في كافة ارجاء شبه الجزيرة . فتبادل امراء الطوائف التهاني وفاضت قريحة الشعر لدى شعراء المديح . ثم عاد المنقذ المراكشي ، مظفراً الى دياره ، إلا أن هجوماً مسيحياً جديداً اضطر اسبانيا الاسلامية ، بعد بضعة شهور ، الى دعوته من جديد ، ولكنه رجع هذه المرة لعزل كافة الامراء الاندلسيين الصغار عن عروشهم وضم جميع ممتلكاتهم اليه . وكان اول الذين جردوا من املاكهم المعتمد الشهير ملك اشبيلية الشاعر فذهب الى جنوب مراكش ليقضي في المنفى حزيناً بقية ايامه في البؤس . وأصبحت مملكة قرطبة القديمة مقاطعة جديدة في دولة

المرابطين ، ومنذ ذلك الحين حتى نهـــاية القرن الحادي عشر تنحط الاندلس سياسياً ، فهي ليست تكوّن غير جزء من دولة اسلامية كبيرة لم تعد قرطبة او اشبيلية عاصمة لها وانما مراكش .

ان حكم امير المرابطين الثاني علي بن يوسف قد شهد ، اكثر من حكم والده مظاهر اتسام الدولة المغربية بالطابع الاسباني (٩) . وعاد هـــذا العاهل المتحدر من أم اندلسية الى تقليد الحرب ضـد الكفار ، اولئك الذين شهد اواخر القرن الحـــادي عشر نجاح تكاتفهم في شبه الجزيرة الايبيرية . وكان من أثر وجود جيوش المرابطين على الحدود الاسلاميـــة انه اعطى سكان تلك البلاد من جديد الضمان لأمن لم يعرفوه من قبل . فاستعادت الاندلس في فترة هـــذا السلام نشوتها بالحيـــاة واهتمامها في المحافظة على سحرها وتأثيرها الثقافي ، في وقت واحـــد ، على ارضها الخاصة وعلى بقية ممتلكات سادتها الجدد . وعبر المضيق عندئذ كثير من الاسبان ابتغاءً للاستقرار بقرب السلطان ؛ فحوّلوا البلاط البربري الصغير في مراكش الى مركز ادبي وعلمي جـدير بأولئك الذين لمعوا في شبه الجزيرة ، في القرون السالفة ، في قرطبة وفي عواصم المقاطعات . ولم يكن سلطان المرابطين ليفـارق حاشيته من الكتبة ورجـال الفقه الاندلسيين الذين اصبحوا اكثر مستشاريه السياسيين نفوذاً . ودل هؤلاء وأولئك ، بالرغم من ابتعادهم عن وطنهم ، على انهم روّاد اشداء ودعاة مغالون للثقافة العربية الاسبانية المؤتمنين عليها .

وسرعان ما رانت ظلالة هذا المشهد : ذلك ان علماء الفقه الاسبان ، في بلاط المرابطين ، قـــد جعلوا سادتهم يشاركونهم تمسكهم التقليدي

بعقيدة فقهية جامدة ، مع ان اسلام المشرق كان في تلك الفترة قد تطور تطوراً كبيراً فيما يختص بحرفية عقيدته الدينية ان لم يكن في روحها حيث نرى عقلاً كبيراً كالغزالي لا يتهيب من أن يعطي عنواناً لكتابه الرئيسي : « احياء علوم الدين » . وسرعان ما تصبح محاربة هذه الميول وسيلة لنشوء حركة الموحدين ونجاحها ، تلك الحركة التي كانت تستند في الاصل على اصلاح ديني وخلقي بينما هي معدة لدعم مآرب سياسية فيما بعد . ولم تكن اسبانيا المسلمة لتشهد هذه الحوادث دون مبالاة ، ذلك ان هذه الحوادث ، اذا أعادت اليها شبه استقلال عابر ، ستؤدي الى سقوط المرابطين وإقامة مملكة جديدة هي مملكة المؤمنين . إلا أن ذلك لم يكن ، بالنسبة اليها ايضاً ، يعني إلا تغييراً طفيفاً في نظام الحكم . وكان شأن سادة الاندلس الجدد ، وهم من الافريقيين ايضاً ، شأن اولئك الذين اسقطوهم من الحكم ان خضعوا بسرعة لطابع اسبانيا .

وقد سجل الموحدون ، في سجلات وقائع اسبانيا الاسلامية ، التي اخضعوها ، دون عناء ، لعقيدتهم ولشكل حكمهم الخاص ، انتصارات عديدة كأسلافهم المرابطين . وفي ذلك الوقت كانت « اعادة الفتح » المسيحي تتقدم بصورة جلية ، في جنوب شبه الجزيرة بفضل الجهود الموحدة التي بذلها كل من الفونس الثامن ملك قشتالة والفونس الثاني ملك ارغونة . غير ان جيوش الاسلام في اسبانيا انتصرت ايضاً في ١٨ تموز ١١٩٥ في معركة الاركوس Alarcos ، ولكن هذا الانتصار كان آخر انتصاراتهم الكبرى ، إذ ما لبث الثأر المسيحي ، بعد سبعة عشر عاماً اي في سنة ١٢١٢ ان ألحق بها على يد لاس نيقاس التولوزي سلسلة من النكبات الجسيمة .

كذلك كان الموحدون كأسلافهم المرابطين ، ان لم يفوقوهم ايضاً ، بناةً عظاماً ، في اسبانيا وفي مراكش على حد سواء ، فمدينتا مراكش والرباط ، في شمال افريقيا ، هما الى حد ما من صنعهم وقد خلّفوا في اشبيلية ، مدينتهم المفضلة ، الجيرلدا او البرج الذهبي . وكل آثارهم ضخمة توحي بالجلال ، شُيدت على نحو رائع ومتناسق ؛ انها عبوس ، عارية من الزخرف ، تتأفف من عبارات المديح لأي امير ولا تقبل إلا برُقُم مناسبة تمتد عرضانياً على شكل افاريز قرآنية (١٠) . ولدينا الدليل ، هنا وهناك على أن هذه الآثار هي من عمل مهندسين معماريين مسلمين من اسبانيا : انهم هم ايضاً ، دليل رائع ، خالد على مر العصور ، على قوة أثر الغرب الاسلامي في اسبانيا العصور الوسطى ، وعلى مركز الصدارة التي عرفت الثقافة الاندلسية كيف تحافظ عليها فيها .

لم يدم تألق طالع الموحدين طويلاً بعد حكم مجيد مثل حكم عبد المؤمن وحكم يعقوب المنصور . ذلك ان « اعادة الفتح » المسيحي لم يعد يجد ، بعد زوال هذا العاهل الاخير ، عقبات كثيرة في اسبانيا تقف في وجهه ، إذ تنشأ الفتن داخل الاسرة الحاكمة نفسها تجر ، في قلب الدولة الى اضطرابات خطيرة سرعان ما تؤدي الى انتفاض ممتلكاتهم الاندلسية ضدهم . ثم تتشكل مرة اخرى ، في شرق شبه الجزيرة وجنوبها امارات اسلامية صغيرة في : فلانسيا ومرسيا ونيبلا Niébla إلا أن المعارك المسيحية اخذت تكسب بضربة تلو ضربة نجاحات مدوية . وفي عام ١٢٣٦ سقطت قرطبة ، عاصمة اسبانيا العربية وقاعدة بناء الخلافة الشهيرة بيد فرديناند الثالث . ومن ثم كان جاك الاول ، ملك ارغونة يستولي على جزر البليار ويمحو من الوجود مملكة فالنسيا العربية بينما

كان ملك قشتالة يُخضع من جهته مملكة مرسيا الاسلامية ويحاصر اشبيلية التي استسلمت اخيراً عام ١٢٤٨ . وسوف لا يبقى من الاسلام في اسبانيا ، سوى امارة تقلصت الى حدود ولاية غرناطة حيث تتوطد ، حوالي منتصف القرن الثالث عشر ، اقدام النصريين ، الاسرة العربية الصغيرة .

وراحت مملكة غرناطة ، تلك التي كان جميع امرائها تقريباً ، ضعافاً ، يتمتعون بسلطة مرجرجة ، تتعرف على حياة فكرية مترعة في عاصمتها وفي مدينتيها الكبيرتين : مالاقا والمرية ، في القرن الرابع عشر بصورة خاصة . وكان ملوكها ينشئون ، بدافع عاطفي ، الروائع الفنية التي لا مثيل لها من الفن الاسباني – المغربي والتي يشير ذكر اسمائها مجرداً الى عظمتها : الحمراء وجنة العريف , Généralife اما الشعر واما النثر الفني فانهما يتجليان في ابن الخطيب وفي حلقة الكتاب التي كانت تحيط به ، في ذات الوقت الذي كان فيه عبد الرحمن بن خلدون ، وهو من اصل اسباني ايضاً يتأمل في المغرب المسائل الاجتماعية التي سيطرحها ويحلها في مقدمته الشهيرة .

سينقضي قرابة قرن ايضاً قبل ان يكلل ملكا الكاثوليكية ، فردیناند الارغوني وايزابيلا القشتالية ، حركة « اعادة الفتح » بالنجاح . إلا أن الحضارة العربية الاسبانية لم تغرق في العدم عندما فتحت غرناطة ابوابها لهذين الملكين في الثاني من كانون الثاني عام ١٤٩٢ وارتفعت راية القديس جاك على قمة الحمراء . انها سوف تستمر في ممارسة تأثيرها بعمق ، لا بل اكثر من ذلك ، فانها ستتابعه في اسبانيا المسيحية نفسها دوماً .

وتشاء الضرورة ايضاً بأن تستمر الى حين طرد المغاربة نهائيـاً ثم تنقل بعد ذلك مراكزها ، حفاظاً على بقية من اشعاعها ، صوب الشواطىء الافريقية وبصورة خاصة الى مراكش وتونس .

وبسبب من ذلك فإن التقاليد الاندلسية ما زالت حتى الآن باقية على حالها في بعض من قرى الساحل التونسي (١١) وعلى وجه الخصوص في غالبية مدن الشمال المراكشي . وقد تكون هذه التقاليد قد بقيت حتى الآن ابعد اثراً وأكثر تميزاً في الرباط ، مدينة الساحل الاطلسي ، وهي التي عاد الى استيطانها ، في القرن السادس عشر ، المغاربة (الموريسك) المهـاجرون من منطقة قرطبة . ذلك ان غالبية المسلمين من الطبقـة البورجوازية فيها ، ما زالت تحمل اسماء اسبانية صرفة مثل : قارقاس ، بالامينو ، مورينو ، روى دياز ، لوبيز ، بيريز او اسماء مدن شبه الجزيرة ايضاً كاسم روندا ودينيا . واذا كان ليس في مظهرهم الخارجي مـا يفرقهم ، في شوارع المدينـة ، عن سائر المراكشيين الاصلاء فان نمط حياتهم ، في داخل بيوتهم قـد بقي محافظاً على طابعـه الاندلسي . ان زوجاتهم يعاملن معاملة افضل ؛ يدخلن في المناقشات العائلية ولا يعانين ، اكثر الاوقات ، من وجود ضرة الى جانبهن . وطريقتهن في تهيئـة انواع الطعام تختلف اختلافاً بيناً عن طرائق سائر البلاد كما انها انواع ، غالباً ما تحمل اسماء من اصل رومـاني . ان هؤلاء الاسبان المسلمين هم الحفظة ايضاً لبعض الفنون الحرفية : فالدراسة لاصطلاحات الحرف في المدن المراكشية تدل ، بالاضافة الى ذلك ، دلالة واضحـة على نصيب التقليد الاسباني كله سواء ما يعود منه الى الرومان ام الموريسك (١٢) . وحيث انه ليس مـا يمنعنا من التفكير على ان الاحتلال الطويل لشبه

الجزيرة الايبيرية قد خلف في هذه البلاد طابعاً بعيد الأثر ، فان تأثيراً اسبانياً يسم ايضاً ، بالمقابل حتى الآن حضارة المدن المراكشية في كثير من مظاهرها وكذلك اسلوب حياة سكان المدن من الطبقة البورجوازية. ان العلاقات بين اسبانيا وبين بقية الغرب الاسلامي ما تزال ، على هذا النحو ، حية عبر اكثر من خمسة قرون خلت على شكل مـــا ، حتى خارج نطاق التقليد الفني والادبي ، قد بدأ تطور غرب افريقيا الصغرى الحاضر في محاولة للتخفيف منه بنجاح لا بأس به .

* * *

لقد حاولنا فيما تقدم من هـذه النظرة العجلى أن نستخلص مراحل تاريخ الحضارة الاسبانية — العربية الكبرى في العصور الوسطى وأن نضعها في الاطار السياسي والاجتماعي ذلـك الاطار الذي تكونت داخله في الغرب الاسلامي ثم فرضت نفسها ، آخذة بأهداب الشعور بقوتهـــا وحيويتها بالتدريج . فقد يصبح تكديس جملة من المسلمات مختارة مما بين أيدينا من نتاج الثقافة المتواصل الممثلة بهذه الحضارة ، ضرباً من العبث اذا أردناه الآن . اذ سرعان ما يتخذ ذلك في مثل هذا الوصف التخطيطي ، شكل تعداد بسيط للأسماء والعناوين . والافضل منه ، بلا ريب ألا نتعرض إلا لتلك التي كانت ، من بين هـــذه المؤلفات ، أبعدها أثراً في مجالات الفن والفكر وذلـك عندما ندرس ما هي المؤثرات التي أثر بهـــا العالم الاسلامي الشرقي على الثقافـــة العربية الاسبانية مباشرة او بصورة غير مباشرة وكذلك تلك التي كانت مدعوّة لتقبلها من اوروبا المسيحية او اكثر من هذا ايضاً ، لممارستها لها بالمقابل . ان الأسماء الكبرى التي يؤكد ترداد

ذكرها على أنها لا تنفصل عن دراسة هذه الحضارة تصبح على هذا النحو أقل انعزالاً مما لو جاءت في عرض جاف للوقائع التاريخية يُخشى ان يبعث بسرعة الملل في ميل الاطلاع ، وألا تكون له سوى قيمة مستندات بسيطة . ويصبح من الجرأة ، ان نحاول ، من جهة اخرى ، اظهار الصفات الاصيلة الخاصة بهذه الحضارة ، دون أن نبين ، في الوقت ذاته ، مدى ما كان لتقليد الكلاسيكية الشرقية العظيم في اسبانيا ، هـذا التقليد الذي ثابرت اسبانيا على تمسكها به بدقه والذي بات من الضروري ظهوره ، في كل سانحة في أكثر فروع المعرفة التي تلقتها واستنبطتها .

كذلك فاننا سنقتصر الآن على بحث مقتضب في آداب الطبقة النبيلة التي اجتهدت هذه الثقافة الاندلسية ، في كثير من الازمنة المتباعدة ، وهي بكامل وعيها لقيمتها الحقيقية ، في ان تمنحها لنفسها بواسطة اقلام بعض من المعبرين عنها . وان هذه الآداب النبيلة لم تحقق رفعة شأنها في ارض الغرب الاسلامي كلها فحسب بل ومشاركتها الموصولة ايضاً في الجهـد التأملي الضخم الذي سيؤدي ، في العصور الوسطى ، الى الانتاج الهائل في الادب العربي .

وعندما نفحص بصورة خاصة وجهـة النظر الاخيرة هـذه يجب ان نبين بأنها لم تكن بعيدة عن الاهتمامات البالغة التي عاناها بعض من مسلمي اسبانيا ، المنتسبين ، في الاصل ، الى طبقة المولدين الاجتماعية ، وفي وسعهم أن يتألموا ، اذا اقتضى الامر ، من امتيـاز العرق ، من جانب مواطنيهم الاندلسيين المتحدرين من أرومة عربية صرفة . ولم يكن هؤلاء المسلمون الجدد (المولدون) غير ناكرين اصلهم فحسب ولكنهم الى حد ما ، كانوا

يستمدون منه فخاراً . فبينما كانوا ينادون بأنفسهم ابطال السنة الاسلامية والتفوق الذي لا يُبارى في لغة القرآن ، فانهم أبوا أن يعترفوا لممثلي العرق العربي الاصيل ، بالصدارة الروحية . تلك هي المسألة التي سببت في الحركة المعروفة بالشعوبية ، وقد طُرحت ، شذراً ، حيثما كان في أرجاء العالم الاسلامي ، واصطنعت ، بحسب الامكنة ، اشكالاً مختلفة ، حتى انها لم تخل ، في بعض الاحيان ، من مطامح سياسية او دينية كما كان شأنها لدى الخوارج والفرس . وفي دراسة جديرة بالتقدير ، نشرت في أواخر القرن الماضي أوضح غولدزيهر كيف امتدت هذه الحركة الشعوبية الى اسبانيا الاسلامية وظهرت فيها وتطورت (٣) . وكان عليها ، في ظل الثقافة الاندلسية ، ان تلهم في القرن الحادي عشر ، صراعاً ادبياً بين ابن غارسيا Ibn Garcia الاندلسي وبين عديد من المعارضين من مواطنيه : وقد نقل الينا الكاتب ابن بسّام ، صدى هذا الصراع ، في منتخبه الادبي الكبير ، الذخيرة ، وقدم الينا تلك المناظرات . ومن المحتمل ان يكون موضوع « فضائل العرب والعجم » قد أثير ، في اسبانيا ، من قبل العرب وغير العرب ، مرات عديدة . وقد قدمت هذه الحركة ببذلها طاقة فائقة ، البرهان على أن الحضارة العربية قد ولدت في وسط تناسق موفق يتألف من مشاركة الكلاسيكية المشرقية ومن عناصر جديدة مستقاة من البلاد نفسها ، من بين اولئك الذين ما زالوا يطالبون باعتزاز ، بماض وبتقاليد ثقافية سابقة على الاسلام ، على الرغم من إطباق العبقرية العربية عليهم .

كذلك فان المفكر الكبير ابن حزم ، وهو الذي شهد سقوط الأسرة الاموية في قرطبة ، وقد رأى نفسه مدعواً لاتخاذ موقف من هذا الصراع ،

طيلة حيـاة كانت مضطربة المجرى بقدر ما كانت غنية ، إلا أن موقفه كان على نحو مختلف الى حد ما وذلك من اجل الرد على انتقادات احد كتـاب القيروان الذي كان يعيب على المثقفين الاسبان ظهورهم بمظهر المستخف لاعمال ملوكهم السامية وعدم محافظتهم على ذكرى انتصاراتهم الادبية . فالرسالة التي ألفها ابن حزم في هذه المناسبة (١٤) . تقدم لائحة تصليفية مقيدة لثمار الفكر الاسباني – العربي : اذ يأتي فيهـا على ذكر المؤلفات الرئيسية ، مشيراً بفطنة الى قيمتها وهي تلك المؤلفات التي ساهم فيها الاندلسيون حتى زمنه ، في بناء الآداب العربية الجليل ، سواء في العلوم الدينية او الزمنية .

كان الهجاء الذي قومه ابن حزم قد صدر عن القيروان كما رأينا ولم يكن وضع الأمور في نصابها على هـــذا النحو خالياً من الميل . كما ان افريقية ومدنها الكبرى العديـدة لم تطالب ابداً ، في العصور الوسطى ، بعلاقات ثقافية مشتركة مع الغرب الاسلامي الأقصى : مراكش واسبانيا . ولما كانت هذه البلاد اقرب الى المشرق والى مصر بصورة خاصة ، فانها كانت تولي وجهها ، بصورة دائمة ، لا صوب المغرب وانما شطر المشرق . وكان عليها ان تنتظر القرن الثاني عشر حتى يصبح تقليد اسبانيا في ظل الموحدين متأصلاً فيها .

لأول مرة على أثر ظروف سياسية جديدة ثم يتعمق أولاً على يـــد الحفصيين وأخيراً بهجرة عدد وافر من الموريسكيين Morisques للتوطن فيها كان فيليب الثالث قـد طردهم عام ١٦٠٩ من شبه جزيرة ايبيريا . وقد جاءت الظروف الجغرافية بصورة طبيعية مع ذلـك تساعد الحالة

الراهنة بحيث غدت الجزائر بفضل امتداد بطاحها وسلاسلها الجبلية بين تونس ومراكش، مهيأة للقيام، في أغلب الأحيان بدور المنطقة الوسيطة إذ تتلقى المؤثرات بالتناوب، بعد صقلها، من فاس او من القيروان. فالآثار التي ما زالت قائمة على طرفي بلاد البربر تكفي، اذا اقتضى الأمر ذلك، لكي تثبت هذا التباين العميق ذلك ان جامع القيروان الكبير من جهة وجامع قرطبة ومراكش وفاس من جهة اخرى، بالنظر الى الطريقة التي تسمح فيها ازمنة بنائها المختلفة بتقارب ما، تبوح على الرغم مما بينها من بعض أواصر القرابة، بأنها متشابهة أقل ما يمكن من التشابه. اذ ان الجو ليس واحداً وكذلك البلاد. فقد كانت الأسر القديمة المسلمة دائماً في افريقية ممعنة في شرقيتها. ومهما كان اصل الحضارة التي ساعدت تلك الأسر على نهضتها فانها كانت تبدي على نحو ثابت قلة اكتراث مستخف بغير عدل، لا يخلو من غيرة احياناً إزاء كل ما يفيد من ناحية اسبانيا. واجتهد بنو الأغلب، في البداية، في ان يجعلوا من عاصمتهم مقراً للرد على المؤسسات العباسية. وعندما اختفوا من وجه موجة الفاطميين العارمة جدد هؤلاء الروابط الثقافية القديمة الخاصة بافريقية وصقلية وتوسعوا فيها. فكان هذا التقليد الذي استمر فيه الـ Zirides وعلى الاخص المعزّ اعظم عاهل من هذه السلالة. هو ذلك التقليد نفسه، الذي نراه في ذات الوقت وانما في كثير من التألق، يتحقق في مصر منذ بداية النصف الثاني من القرن العاشر.

أما بقية المغرب الاسلامي – المغرب الاوسط والمغرب الأقصى على الاخص وهو المدعو مباشرة اكثر من غيره لتلقي مؤثرات الثقافة الاسبانية – فانها قد اتخذت موقفاً، تحت ضغط الظروف، مختلفاً عن موقف افريقية.

ولكنها لوحظت مع ذلك وفي بعض المناسبات ، عندما اصبحت السلالات البربرية من المرابطين والموحـــدين هي سيدة الارض الاسلامية في شبه الجزيرة ، انها تحاول ان لم يكن ابعاد الوصاية الاسبانية عنها ، فعلى الاقل اضعافها الى أدنى حـــد . وفي الوقت الذي ما زالت فيه ذكرى النصر النصر الجديد في الاركوس تبرر ، في الغرب ، دفاعاً عن الوطن Pro domo تتعلق بنوع من المفاخرة العربية فان مطلع القرن الثالث عشر قد شهد ما يشبه تلـــك المحاولة تحت ستار مباراة خطابية بين اثنين متأدبين : احدهما افريقي والآخر من اصل قرطبي" . ان رد المنافح عن الثقافـــة الاندلسية الذي ما زلنـــا نحتفظ بنصه كاملاً (١٥) . يستحق منا الوقوف قليلاً لتفحصه قبل ان ننهي هـــذه السلسلة من الملاحظات عن المغرب الاسلامي والحضارة الاسبانية – العربية . ذلـــك انها وثيقة ، اذا طرحنا من صيغتها الجزء المبالغ فيه او المغرض ، تبقى معتبرة في هـــذا المجال لوحة من اللوحات الشاملة المعاصرة وهي اكثر مما نملك دقـــة وكمالاً عن التهيئة الاجتماعية والفاعلية الفكرية في اسبانيا العربية والتي توضح ايضاً ، حتى في ذلك العصر المتأخر ، ان البلاد ما زالت تحتفظ بكامل شعورها بصدارتها .

وذات يوم – كما يورد المقري Makkari عن ابن سعيد Said الشهير – نشبت مجادلة بين المتأدبين من حاشية احـــد الامراء الموحدين الذي كان والياً على مدينة سوتا Ceuta الواقعة على مضيق جبل طارق . ذلك ان عالمين : احدهما من طنجة والآخر من سيكندا ، من ارباض قرطبة ، اخذا يتناقشان حول تفوق بلد كل منهما على الآخر . وازاء اصرار الطنجاوي على تأكيد افضلية شمال افريقيا السياسية فقـــد انتهى

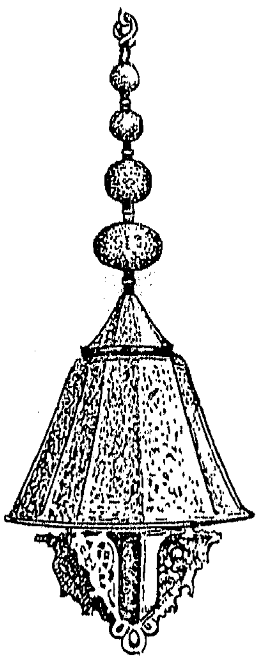
السيكندي الاسباني الى ان يصرخ في وجهه قائلاً : « لو لم تكن الاندلس لما ذُكر المغرب حتى بمجرد الذكر وبقي قابعاً في الظلام ! » وحسماً للمناظرة فقد امر الحاكم الموحّد الاديبين أن يضع كل منهما رسالة يثبت تفوق بلده الخاص . ففي هذه الظروف التي هي بلا ريب صحيحة تاريخياً ألّف Shakundi رسالته ولحسن الحظ احتُفظ بنصها الى ايامنا هذه .

يبدأ المؤلف الاندلسي بذكر وقائع تاريخ السلالة الاموية في اسبانيا وافريقيا ويعلن بأن هذه الوقائع تؤيد بسهولة وجه الشبه بينها وبين جلائل اعمال الموحدين التي لا ينكرها ، مع ذلك ، مطلقاً . فهو يعطي امراء الولايات في القرن الحادي عشر حقهم ، إذ يقول انهم « انعشوا سوق العلوم وتنافسوا في تشجيع الشعراء والكتاب » ويعطي من بينهم لملوك اشبيلية المقام الاول اولئك الملوك الذين يرى انهم فاقوا بني حمدان في حلب فيما ابدوه من اهتمام بالآداب . وقد ابرز تلك الحقبة الزاهرة التي كان فيها الامير الشاعر ، المعتمد ، مركزاً تنجذب اليه وتلتف حوله طائفة من الكتاب الرقيقين كابن زيدون وابن اللبّانة وابن عمّار . فأنّى للمغرب ، أن يستطيع المفاخرة بفقهاء كابن حبيب وبمفكرين كابن حزم وابن رشد وابن باجه Avempace وبأطباء كابن زهر وبمؤرخين كابن حيان وبكتاب نثر فني كمؤلف قلائد العقيان وبمؤرخي ادب كابن بسام وأخيراً بملوك كالمعتمد بن عبّاد . وهل انجب المغرب من شعراء يزينون بالوشي الرقيق المواضيع التقليدية الكلاسيكية او الالهام المحلي ، ويلونون في قالب جديد الاستعارات التي تنطوي على المرأة المحبوبة وتدل عليها في آن واحد ، ويصفون نضرة الحدائق والغياض

والميـــاه المنسابة ، وعذوبة الاسحار وتلألؤ الاصال ؟ وأنّى للمغرب اخيراً القادة الذين يتتبعون بلا هوادة اثر العدو المسيحي ، فيملأونه رعباً وينتزعون اعجابه ؟ ثم يعدد الكاتب بعد ذلك مدنـــاً اسبانية كثيرة غدت منـذ القرن الحادي عشر مراكز للثقافة بعد ان فقدت عاصمة الامويين منزلتها كعاصمة علمية . فهو يذكر على التوالي اشبيلية ونهرها وغابات زيتونها التي ألهمت شعراء كثيرين . و Jaén وقلعتها الحصينة ، وغرناطة التي يسميها دمشق الاندلس ، وملقة المدينة التجـــارية الشهيرة بمنتجات حقولها من التين والخمور « بين حلال وحرام » والمرية المرفـأ الزاهر « مَرْقَاة الغرب échelle du couchant » حيث كانت تزدحـم المراكب التجارية قبل ان تعود محملة بالأقمشة الثمينة الى موانئها في بيزة وجنوة والبندقية او الاسكندرية ، ومرسية مدينـــة الزهور وأخيراً فالنسية وبحيرتها التي تتلألأ عليها أشعة الشمس المنعكسة .

من هنا ندرك لهجة الزهو التي تبدو مع ذلك اقل نشازاً في نصها العربي منها في الترجمة ، هذه اللهجة التي تلازم من البداية حتى النهـاية هذا الدفاع الطويل والذي هو في الوقت نفسه هجوم على الخصم . فعلينا اذن من خلال الاسلوب الذي اعتمده الكاتب ان نرد رسالته الى مقاييسها الصحيحة . على انـه لا ينبغي مطلقاً ان ننكر المدى العميق للصيحـة العنيفة المحقة التي قضت بوضع هذه الرسالة : « لو لم تكن الاندلس لما ذُكر المغرب ! » وبقدر ما كان الناس في ذلك العصر على يقين ايضاً من ان احد هذين البلدين القريبين جداً القرب واحدهما من الآخر وانها

على صلات ضرورية ودائمة ، قد اصبح بلا ريب ، من جراء ضعف مقامه السياسي المتزايد ، تابعاً للآخر على نحو ما ، إلا أنه بالمقابل حافظ على تقليده التمديني سليماً ؛ فقدر ما كان صحيحاً ان اسبانيا الاسلامية التي تحولت الى دور التابع السياسي لمراكش ، فقـــد استمرت مع ذلك ، بأنفة السيد الروحي ، على ان تطبعها بطابع ثقافتها وبعبقريتها .



الفصل الثاني

المشرق الإسلامي
والحضارة العربية الإسبانية



المشرق الإسلامي
والحضارة العربية الإسبانية

ان الاندلس وقد استطالت وديانها الضاحكة وشمخت قممها الجرداء في أقصى الجانب الغربي من العالم الاسلامي ، وقد وجب عليها ، بصورة طبيعية ان تتسم اكثر من بلاد المغرب ، بدءاً من الزمن الذي ضمها العرب فيه الى ممتلكاتهم ، اتسام المقاطعة اللامركزية ، ضعيفة الاستجابة للتنظيم والحفاظ على علاقات ثقافية فعالة مع عواصم امبراطورية الخليفة في دمشق اولاً وبعدئذ في بغداد . ولما كانت تقع مباشرة على تخوم عالم مختلف اضطر الاسلام ان يكبح جماح اندفاعه قبالته فقد كانت تجاور ايضاً مكاناً خطراً اذ يتوجب عبور مضيق صعب قبل الوصول الى ان تطأ ارضها قدم انسان . ذلك ان يعبر العرب بحراً ما ، مهما كان ضيقاً ، في القرنين الاول والثاني للهجرة على الاقل ، مسألة كانت اصعب من قطع صحراء

شاسعة من اولها الى آخرها . ولا بد من أن نتذكر امر الخليفة الوليد الحذر للقائد موسى بن نصير بأن لا يعرض المسلمين في بعثته التي ينوي القيام بها لأخطار بحر عنيف تثيره ، عادة عواصف هوجاء . إلا ان التقدم الذي احرزه المسلمون بسرعة في فن الملاحة عجل في ازالة دوافع هذه المخاوف . ومنذ ذلك الوقت اخذ المشرق ينظم جملة من المعلومات الجغرافية والسياحية عن اسبانيا كان مجرد وجودها يبرهن على توطد علاقات مبكرة ، من مختلف الانواع ، وبالتأكيد ، تجارية على الاخص ، بين طرفي البحر الابيض المتوسط .

ان المشارقة هم اول من افرد لاسبانيا أبحاثاً وهي وان تكن مقتضبة في الحقيقة اغلبها في المحل الثاني إلا ان مصدرها يجعلها على نحو خاص . وأقدم هذه الابحاث وهو ما قام به الفارسي ابن خرداذبه Khurdadbeh لم يكن ، على كل حال ، متقدماً على عام ٢٣٠ هجرية كما انه اقل دقة من ابحاث الكتاب اللاحقين كاليعقوبي والمقدسي ؛ وعلى كل حال فان الصورة التي تنجح اكثر من غيرها في تصوير موقف فكري اقل عطفاً على ملك خلفاء آسيا القديم الذي اصبح فيما بعد امارة أموية اندلسية ، هي تلك الصورة التي يقدمها الجغرافي ابن حوقل : فان هذا الشخص الذي يحتمل انه كان عيناً للعباسيين او الفاطميين قد زار اسبانيا بنفسه وأقام فيها مدة غير قصيرة إبان حكم عبد الرحمن الثالث أي في منتصف القرن العاشر . إلا ان ما يمنح قيمة لوصف ابن حوقل هو في ما يسوقه من ادلة نادرة عن حياة البلاد الاجتماعية والاقتصادية : فاننا نجد فيه قائمة بالمنتجات العديدة التي كانت تصدر من الاندلس ، ليس الى بلاد العرب فحسب وانما باتجاه مصر ايضاً كما اننا نجد تحديدات عن تجارة العبيد في

اوربا — أي الصقالبة بلغة ذلك العصر — الذين كان يجلبهم الى اسبانيا المسلمة تجار مختصون ثم يوزعونهم من موانىء الشاطىء الاندلسي الرئيسية على دول شرق البحر الابيض المتوسط . على ان ابن حوقل وهو من لم تكن محاباته محل شبهة ، لا يعتبر حكماً في صالح سكان مملكة قرطبة فهو يقول عنهم اناس امكانياتهم محدودة ، يتقنون ركوب الخيل وجنود لا قيمة لهم ؛ ويعجب كيف ان هذه المملكة استطاعت المحافظة على استقلالها ولم تضم حتى الآن الى ممتلكات الخلفاء . ومع ذلــك فانه يندهل من مردود الضرائب ومقدار الثروة العامة التي لا تقاس بها سوى ثروة الحمدانيين في حلب . وبالتالي فانه ينصف العاصمة قرطبة باظهار بهائها التي ينعتها ببغداد الثانية ، كما ينصف جمــال المدينة الملكية الزهراء وثراء وفخامة الحي الارستقراطي في الرصافة .

* * *

ان اسم الرصافة هــذا يذكر ، عندما يرن في السمع بمقر الامارة de la Palmyrène الشهير وبأيام الخلافة الاموية الجميلة في دمشق فلم يكن اختيار هذا الاسم مطلقاً ، للدلالة على جملة من القصور القائمة على مداخل قرطبة نفسها — من عمل الصدفة المحضة او المطابقة الصرفة ذلــك ان الامير عبد الرحمن الاول هو الذي اطلقه بنفسه على احدى مؤسساتـه المفضلة لكي يحفظ هكذا — في قلب امارته التي هاجر اليها — ذكر الوطن الذي اضطر الى مغادرته والعرش الذي أقصي عنه بكل شراسة . وهــذا دليل فصيح — ان لم تكن هناك ادلة كثيرة غيره على وجود

« تقليد سوري » تأصل في اسبانيا في ذات الوقت الذي كان فيه امير اموي من الشرق يخلق مملكته .

لقد ظهر هذا التقليد السوري في الحقيقة ، منذ البداية في شبه الجزيرة . إذ اجتهد الولاة العرب الذين كانوا نظرياً تابعين للخليفة في آسيا ، على مختلفهم ، بعضهم في اثر بعض ، في تطبيقه . وعندما تمكن جند القائد بلج المشارقة من ايجاد ملاذ في اسبانيا على أثر مغامرة دافئة الصيت واستقروا فيها عام ١٢٥ هجرية فأتاحت هذه المناسبة غير المنتظرة ، العمل ايضاً على نشر هذا التقليد فيما وراء قرطبة نفسها ، اي في جميع اراضي الاندلس الشرقية والجنوبية . وقد اقطعوا ، جزاء خدماتهم الحربية ، اهم الكور المحاذية للبحر الابيض المتوسط فأطلقوا عليها اسماءهم . وكان جند الشام قد استقروا ضمن هذه الشروط في نطاق Elvira حول غرناطة وجند الاردن في نطاق Malaga وجند فلسطين في Sidano وجند حمص في اشبيلية وجند قنسرين في Jaen بينما استقر جند مصر في Béja الواقعة جنوب البرتغال حالياً ، وفي مرسيا (١٦) ، وهكذا نمت مدن الاندلس الرئيسية منذ ذلك الحين بفضل عناصر من سكان جدد سيشكلون نوعاً من الطبقة المحاربة ذات اصل عربي صرف ، تعيش من موارد اقطاعاتها الطائلة التي يتولى استغلالها بالمزارعة فلاحون من السكان الاصليين اقاموا على مسيحيتهم او اصبحوا مسلمين منذ عهد قريب . فقد كان القسم الاعظم من هذه الارستقراطية الحربية سوري الاصل ، وهذا ما يمكّن من القول بحق بأن الاسماء الجغرافية التي جعلوها تتغلب في مراكز اقامتهم الجديدة قد شكلت بالنسبة اليهم ، الى جانب الاسماء

الامكنة المحلية ، لقباً ، « لقباً من ألقاب النبالة ومبدءاً من مبادىء التضامن » (١٧) .

اننا نملك شتى البراهين على اهتمام مؤسس المملكة العربية في اسبانيا ، اهتماماً ثابتاً في منتصف القرن الثاني للهجرة ، في ان يضع دولته واطارها الاجتماعي على منوال سوريا الاموية وان يعضد فيها الى ابعد مدى تقليداً شرقياً . وزيادة على ذلك فان التشابه الجغرافي قد سهل تحقيق تلك الصورة وكان ، كما نعتقد تمام الاعتقاد ، مدعاة لمقارنات عديدة ادبية وشعرية بصورة خاصة ما بين اوراق الفيغاس Vegas الاندلسية الخضراء وبين الغوطة الوارفة في مشارف دمشق وبين نداء الحنين الى نخيل الواحات السورية (١٨) وحور « البساتين على ضفاف العاصي » . ومن جهة اخرى فان عرب المشرق ، وقد تمرضعوا في اسبانيا من جديد ، قد حافظوا فيها ، في شكل بقي مدة طويلة لم يمس ، على نوع الحياة لدى اسلافهم : وفي سبيل ان يفقد التقليد العربي الاصيل ، شيئاً فشيئاً ، قليلاً من حدته كان يجب على العرب ان يتكيفوا تكييفاً بطيئاً مع ارض شبه الجزيرة وأن يعقدوا صلات مع السكان الاصليين بدأت متقطعة عن تعمد ثم اصبحت ضرورية على مر الزمن باقبال هؤلاء على اعتناق الاسلام بأعداد متزايدة ، او بالاحرى فان التقليد العربي ، ارتضى ، مع محافظته على مكانته الرفيعة في الوقت ذاته ، بمؤثرات لم يكن له منجى من ارتياضها بحسب النظرية التي دافع عنها وأذاع صيتها تين في القرن التاسع عشر وهي : انحلال العروق وإطار الحياة الطبيعي والظروف التاريخية .

وأخذ التقليد الشرقي يتعمق كذلك منذ ارتقاء عبد الرحمن الاول

الحكم بسبب من قدوم جماعات عربية متوحدة ، كان النجاح في اقــامة دولة اموية يجذبها الى الجانب الآخر من البحر الابيض المتوسط فإننــــا نعثر على أثر كثيرين من هؤلاء المهاجرين او كما سمتهم الكتب العربية ، الداخلــين ، في انساب الشخصيات الغفيرة الـــتي تزحم قوائم التراجم الاندلسية بأسمائهـــا او قوائم كتب الانساب ايضاً وفي طليعتها جمهرة ابن حزم . وقـــد شكل هؤلاء المهاجرون مع سلالات الجند الذين استوطنوا من قبل اسبانيا ، الطبقة العربية الاجتماعية التي دعيت بأهل الشام بينما يجمع العرب الآخرون الذين كانوا أول من شارك في الحيـــاة الاجتماعية بعد الفتح مباشرة في طبقة اخرى هي طبقة البلدي . وقـــد مضى على هؤلاء وأولئك امد طويل في شبه الجزيرة الاسبانية قبل أن تهدأ فيما بينهم خصوماتهم القبلية القديمة التي انتقلت معهم من الشرق الى الغرب ، ولكي يضعوا حداً لتحريض النزاع العربي القديم (١٩) الكامن ، بين القيسيين واليمنيين ، ذلك النزاع الذي رأينا نطاقه في اسبانيا يتسع على بعـــد آلاف الكيلومترات زمناً طويلاً ، اتساعاً هائلاً حتى ليكاد احياناً يفوق كل حد .

وعلى كل حـــال فان الحقد على العباسيين هو الذي ألّف بـــين شمل التجمعات العربيـــة الاصل وبين النظام الاموي في قرطبة في العصور الاولى من الاحتلال الاسلامي لشبه جزيرة ايبيريا . وعندما كانت تنفجر ثورة ما في اسبانيا ضد العرب فانها انما تحدث حول راية اسياد بغـداد السوداء التي كانت تنشر في مثل هذا الظرف ، ويبدو ان ذلك لم يكن بدافع القناعة التامة بالطبع لا ولا نتيجة لدعـــاية صادرة عن آسيا . ذلك ان العباسيين سرعان مـــا انصرفوا عن الاهتمام بضم اسبانيـــا الى

ممتلكاتهم : ولم تكن اوروبا الغربية تثير اهتمامهم إلا قليلاً جــداً من الناحية السياسية ؛ فان العلاقات الدبلوماسية التي امكن اقامتها ما بين هارون الرشيد وشارلمان كانت في الحقيقة متواضعة جــداً لذلك يجب ردها الى حقيقتها وإن كنا نخشى زوال صورة كانت عزيزة علينـا يوم كنا طلاباً . إلا أن الشرق العباسي اخذ يتدخل تدريجيـاً بصورة غير مباشرة في نظام الحياة في اسبانيا العربية تحت ستار الثقافة فحسب في القرن التاسع ولم يهدف هذا التدخل ازالة التقليد السوري الذي كان دائم الفعالية وإنما لإدخال اكثر الاتجاهات الحضارية في بغداد .

وفي تلك الاثناء حققت اسبانيا المسلمة التي ما زالت مفعمة الى حـد بعيد بأثر الشرق ، ليس وحدتها السياسية فحسب ، بل ووحدتها الدينيـة ايضاً . وذلك باتباعها المذهب المالكي نهائياً لم ترتد عنه من بعـد ذلك ابداً ، وقـد حل رسمياً في شبه الجزيرة محل مذهب الاوزاعي في عهـد الامير الحكم الاول وبأمر منه على أثر عودة بعض العلماء الاندلسيين من المدينـة الى قرطبة حيث كانوا يتابعون تعاليم مالك بن أنس فنقلوا الى الامير المودة التي يكنها عالم المدينـة العظيم للمملكة الاموية في المغرب . ولسوف يكون لاعتناق اسبانيا العربية هذا المذهب تأثير رئيسي ، بعيد المدى على مستقبلها الدؤوب : ذلك ان هذه العقيدة الجديدة التي قوبلت بحماس لأنها تحرر الدولة الاموية من الولاء الديني للعباسيين ، قـد تأصلت في ذات الوقت ، بنفس السرعة ، في المغرب ايضاً . فكان عليها ان تنحو منحى المذهب المالكي بذلك السناء الفريد في الدراسات الشرعية الذي لم يخب نوره ابداً منذ ذلك الحين ؛ إذ مـا زال علم الحقوق يشكل حتى الآن جوهر الفاعلية العلمية في مراكش . ومهما يكن من امر ذلك فقـد

شهدت اسبانيا منـذ اعتناقها المذهب المالكي نشوء مدرسة دينية سرعان ما تجاوزت شهرتها حدود العالم المغربي وقـد عمل على اشهارها بالدرجـة الاولى اعلام من المجتهدين مثل عبـد المالك بن حبيب صاحب الوديعة ومحمد العتبي . أما المحاولات الوجلة التي كانت تصدر عن شخص مثل باقي ابن مخلد لادخال المذهب الشافعي الى اسبانيا ، في النصف الثاني من القرن التاسع فقد بقيت بلا غـد وكذلك تلك المحاولات التي بذلت لاشراك اسبانيا في الحركة الرجعية ، المضادة للحركة العقليـة التي كانت تحاول آنئذ في العالم الاسلامي الوقوف في وجـه الخطوات التقدمية التي سبق لعلم الفقه ان حققها . ومع ذلـك فان هذا لا يعني القول بأن الاندلس ظلت دائماً بمعزل عن الجدل المذهبي ؛ فان سقوط خلافة قرطبة في اواخر القرن العاشر وفي مطلع الحادي عشر سيمهد لهذه المنازعات في الافكار ، في ذلك العصر حيث يسعى شخص كابن حزم من خلال تجديده للمدرسة الزاهرية ، للعمل على ان تظفر ، في داخل المذهب المالكي التقليدي ، اتجاهاته المعاكسة كحركة مواطنيه المحافظة .

ويمكن الموافقة بسهولة على ان فترات المهادنـة السياسية هي دوماً اكثر الفترات ملاءمة لازدهار الفكر وتطوره ولعمـل المؤثرات الثقافيـة الاكثر فاعلية وخصباً ، ومن اجل ذلك فانه ليجانب الانصاف عدم افرادنا مكانة خاصة بارزة ، في وصف نحاول فيه تبيان نصيب الشرق الاسلامي في الحضارة العربية الاسبانية ، لأمير قرطبة الرابع عبد الرحمن الثـاني الذي تولى الحكم من عام ٨٢٢ الى عام ٨٥٢ ، مباشرة بعـد حكم والده الحكم الاول احد صانعي الوحدة الأموية الاندلسية الذين كانوا أكثر الناس فاعلية . وقد جاءت هـذه الفترة الكافية من السلام النسبي في اسبانيا ،

متفقة مع تجديد حقيقي ، يستطيع الشرق العباسي ، اكثر من التقليد السوري ، ان يدعي فيه الفضل المنيع . ان ذلـك بقي موضع شك ، بعض الشيء حتى الآن ، ولكن من خلال سلسلة هزيلة من الادلة التاريخية اذ على الرغم من انها مختصرة ومضطربة قد ألهمت دوزي مؤرخ اسبانيا المسلمة المعروف صورة عن حكم عبد الرحمن الثاني وهي ليست اليوم باطلة فحسب . وانما ثبتت بأنها في نتائجها غير صحيحة . وبينما كنا لا نملك بالفعل حتى الوقت الحاضر غير مقاطع اخبـــار يحول ايجازها دون أية دراسة متعمقة لهذه الحقبة ، بله حاسمة للثقافة العربية الاسبانية فقد كان لي الامتياز ، منـذ سنوات قليلة ، في اكتشاف تاريخ سياسي وأدبي مفصل جداً عن الاندلس إبان حكم الحكم الاول وعبـد الرحمن الثـاني[٢٠] انه يكشف ، من عدة وجهات نظر ، آفاقاً جديدة كل الجدة ، عن ازدهار ثقافي كنا نعتقد انه حصل متأخراً مائة عام على الاقل بينما هو في الواقع قد بدأ بالظهور ، في شبه الجزيرة منذ بداية النصف الاول من القرن التاسع بتأثير مباشر من الحضارة العربية في الشرق ، المعاصرة للعباسيين .

ولدى قراءة اكثر نصوص هذه الوثيقة الجديدة تميزاً فان الامير عبد الرحمن الثاني يبرز منها في ملامح حامي العلماء وصديق الآداب والفنون وبخاصة انه هو نفسه شغوف بكل ما يتصل بعلمي الفلك والنبوءات حتى انه اوفد قبل توليه الحكم عالماً من قرطبة هو عباس بن ناصح الى العراق نفسه متوخياً الآثار العلميه المنقولة الى العرب عن اليونان والفرس واستنساخها له . فقد كان هذا الامير يجد لذة خاصة في دراسة الكتب القديمـــة في الفلسفة والطب ولكي يشبع رغبته في استطلاع المستقبل احاط نفسه بجماعة من علماء الفلك وعيّن لهم رواتب ضخمة وطلب اليهم ان يراقبوا معه

السماء ومجموعاتها الكوكبية للتوصل الى استكشاف طوالعها حتى في أتفه ظروف الحياة اليومية . ان هذه النصوص الجديدة التي تتعلق به تبدي لنا هذا السيد وقد وزع وقته ما بين مراقبة عديد من الاعمال العمرانية التي أفادتها قرطبة ابان حكمه (٢١) وبين الصيد في الوادي الكبير بواسطة الصقور حيث كان الرهاء يُكره على الجري وكان اكثر الطرائد ابتغاء في ذلك الزمن ، وبين دراسة السماء وبين شؤون الدولة وبين الحلقات الادبية والموسيقية كتلك التي كان انعقادها حتى ذلك الحين نادراً جداً في عاصمة بني امية اسبانيا .

ان الفضل في تنظيم مملكة قرطبة على المثال العباسي يعود لعبد الرحمن الثاني وليس الى سميّه على نحو ما كان يسود الاعتقاد الى وقت قريب ، عبد الرحمن الناصر الذي لم يتولّ الحكم إلا بعد مضي قرن من الزمان . وفي سبيل ألا يبقى امير قرطبة متخلفاً عن خلفاء بغداد الذين وصف له عيونه العائدون من الشرق تنسيقهم المتشابك لمرافق الدولة فانه اتبع طريقتهم دون ان يرى في العداوة التقليدية بين الاسرتين ما يعيقه او ينفره من ان ينحو نحوهم . وهكذا نكتشف بأن نظام الادارة في قرطبة قد اصبحت مبادئها على الاقل ، منذ النصف الاول من القرن الثالث الهجري ، صورة منقولة مباشرة عن نظام الادارة العباسي : كذلك فان تأليف « خدام » الامير بالمعنى القديم لهذا التعبير ، يشير الى تقليد ذلك لدى خلفاء بغداد تقليداً مثيراً للدهشة كما وأنه يتعلق ، فيما وراء قدوته الاسلامية الشرقية هذه ، بعادات الفرس ومملكة الساسانيين . وتشبهاً بالعباسيين صنع داراً للنقود ودشن استعمال الخاتم الرسمي وأسس داراً للطراز إذ نظم مصانع تنتج اقمشة رسجاداً من جميع الوجوه بأجمل

مصنوعات الشرق في القرون الوسطى . ولم يكن لدى خلفائه ما يفعلونه سوى تثبيت هذا التقليد الذي ابتدعه وإدخال بعض الضمائن التي تمنحه في المستقبل سمتاً اسبانياً خاصاً ولم يقدم هذا التقليد مدة حكمه وخلال عشرات السنين الاولى التي تلت ذلك ، اتجاهاً الى الاصالة بل بقي كما هو بكامله على النحو الذي نقل فيه عن الشرق .

ان المؤرخ الاسباني الكبير احمد الرازي يقدم لنا بدقته المعتادة دونما حاجة الى ان نحمّل نصه معنى اكثر مما يحتمل او نضطر الى قراءة ما بين سطوره ، معطيات مفيدة الى حد يثير العجب عن النصيب الراجح الذي فاز به الشرق الاسلامي في تكوين الثقافة الاندلسية في القرن التاسع . فكل ما كان يفد من بغداد او من المدن الكبرى الاخرى في الامبراطورية العربية كان يستقبل بإعجاب او بامتثال على الاقل في ربوع شبه الجزيرة . وفي رأيه انه كان للمنازعات الداخلية التي كانت عاصمة العباسيين مسرحاً لها قبل وصول المأمون للحكم ، نتائج غير متوقعة بأن سهلت انتقال الكنوز الملكية التي بددت على أثر نهب قصور بغداد ، الى اسبانيا . وهكذا – على حد قوله – فان عقداً شهيراً كان يخص السلطانة زبيدة قد اشتري في آسيا لحساب الامير الاسباني الذي قدمه ، بدوره ، هدية لاحدى محظياته هي الاميرة شفاء إذ بفضل دخل الخزينة الاندلسية الضخم ازدادت ثروة الامير الخاصة زيادة كافية لتمكنه من شراء جواهر فائقة الثمن وكتب نادرة وأقمشة ثمينة مهما كان سعرها . ولم يتردد بعض التجار النابهين في تحمل السفر الطويل الخطر ، الى اسبانيا ليقدموا الى سيد البلاد نوادر الاشياء وأثمنها .

وكانت اقامة زرياب المغني العراقي نهائياً في قرطبة عاملاً ، بلا شك ،

من العوامل ذات الاثر البعيد في عودة المملكة الاندلسية من جديد الى الاتجاه نحو الشرق في عهد هذا الامير المستنير . وقد اشار كثير من الرواة من قبل الى قدوم هذه الشخصية ولكن بتفاصيل اقل بكثير من التفاصيل الماثلة في كتاب التاريخ المخطوط . فقد جعل قدومه شهرة فائقة في البلاد لكل مـــا يرد من الشرق ، لذلك فانه يستحق ألا نكتفي بالمرور به مروراً عابراً بل يجب التوسع فيه بعض الشيء .

وُلد ابو الحسن علي بن نافع عام ١٧٣ هـ (٧٨٩ م) في العراق . فقد كان عتيقاً للخليفة العباسي المهدي ولقب زرياباً بسبب من وجهه النحاسي الغامق واذا صدقنا تراجمته فان هذا الاسم كان يعني طيراً اسود الريش . واشتهر زرياب في سن مبكرة تلميذاً لاسحـــاق الموصلي ، الموسيقي والمغني ذائع الصيت في بلاط بغداد . وعرفت موهبته حـداً من الشهرة بحيث ان الخليفـة هارون طلب من استاذ زرياب احضـاره معه ليُظهر مقدرته امامه . ففاق الموسيقار الفتى كل حـــد في حضرة الخليفة مما اثار حسد اسحاق الموصلي الى درجة اضطرته لشدة ما خشي منه على حياته اذا اقام في بغداد ، الى ان يهاجر بعيـداً ، ويذهب ، طلباً للثروة في الغرب . وبعد ان مكث مدة قصيرة في القيروان بالمغرب في بلاط زيادة الله الاول الاغلبي اخذ طريق الاندلس ، وكان خبر براعته قد سبقه الى الامير الاموي الحكم الاول في اسبانيا عن طريق الموسيقار اليهودي القرطبي ابو النصر منصور ونزل اليهـا من البحر في الجزيرة ، وهنا تلقى نبأ وفاة الامير الذي استدعاه وتولي ابنه عبد الرحمن الثاني على ان هذا الاخير اسرع الى ابلاغه بأنه يأخذ تنفيذ عقـد والده على عاتقه وأنفذ الى زرياب من الهدايا مـا دعا المهاجر الى ان يضع حداً

لتردده ويعزم على الاستقرار في اسبانيا بقية ايامه . ان هـذا الموسيقار العراقي وقد استقبله سيد البلاد باهتمام بالغ ومنحه جُعالة ضخمة جـداً بالقياس لذلك العصر وكذلك منزلاً ذا محصول مثمر ، فانه سرعان مـا فرض نفسه على المجتمع القرطبي سواء بموهبته الموسيقية أم بثروته المادية . وقد أحدث سخاء الامير الاسباني على زرياب ضجة في العـالم الاسلامي جعلت موسيقار آخر من بغداد Alluyah يستطيع ان يصرح للخليفـة المهدي انه بينما لا يسير زرياب – في قرطبة ، إلا في موكب فخم من الفرسان ويملك ثلاثين الف قطعة من الذهب فان حالته هو قـد توشك ان تؤدي به الى الموت من الجوع . كان زرياب عندما وصل الى اسبانيا ٨٢٢ قد بلغ نيّفاً وثلاثين سنة من عمره ؛ فمكث فيها حتى وافته منيته عام ٨٥٧ حيث قام بدور الحكم ، بلا منازع ، في مسائل الاناقة والشخصية الاولى في جميع الازياء الجديدة ، التي لم تتغلب منذ ذلك الحين على المظهر الخارجي في المسلمين الاندلسيين فحسب بل وعلى نمط حياتهم الخاصة .

وقد برز زرياب بالاستناد الى ما يقوله تراجمة حياته ، في الموسيقى ، مهنته الحقيقية ، مجدداً عبقرياً في الارض المختارة التي أحسنت استقباله : فأوجد معهداً سرعان ما استطاعت فيه الموسيقى الأندلسية التي كانت في البداية وثيقة القرابة بالمدرسة الشرقيـة التي أذاع صيتها اسحاق الموصلي ، ان تكتسب سمات الاصالة التي بقي تقليدها حتى الآن يسري حاراً في كافة الغرب الاسلامي . كذلك فاننا ندين له ، فيما عدا هـذا ، بفضل اختراعات فنية مختلفة كالعود ذي الأوتار الخمسة الذي حـل محل العود ذي الأوتار الثلاثة ، الذي كان يستعمل حتى ذلك الحين ؛ واختراع مضرب من مخلب النسر بدل المضرب المصنوع من الخشب .

ولكن مهما يكن من امر أثر زرياب في قرطبة بوصفه موسيقياً فلربما كان اقل مدى من ذلك الأثر الذي احدثه بآرائه هذا المشرقي صاحب الذوق الرفيع الذي يجعلنا نفكر ببترون Pétrone وبروميّل Brummel معاً على المجتمع الاسلامي الارستقراطي المعاصر له . ولنتناول ، كيفما اتفق ، من بين تجديداته التي أسندها اليه المؤرخون في ذلك الوسط الذي بقي محافظاً حتى ذلك الحين ، نمطاً من الحياة ظل على حاله لم يمس تقريباً منذ اكثر من قرن من الزمان ، منذ تأسيس امارة بني امية . فقد علّم زرياب أهالي قرطبة اولاً اكثر طرائق الطعام تعقيداً في المطبخ البغدادي (٢٤) ودربهم على كيفية اعداد وجبة راقية : يجب ألا تقدم ألوان الطعام بلا نظام وانما يبدأ بأطباق الشوربا ويتبعها مقدمات من اللحم ثم ألوان الطيور المتبلة بالبهارات بمستوى الذوق الرفيع وفي النهاية تأتي الاطباق الحلاة ، الكاتو المصنوع من الجوز واللوز والعسل او معقود الفواكه المعطرة (المزوجة Vanillées) المحشوة بالفستق والبندق . واستبدل أغطية الموائد القطنية الخشنة بنوع من الجلد الرقيق كما برهن كيف تكون اقداح الزجاج الثمين اكثر ملاءمة مع اناقة المائدة من طاسات الفضة او الذهب . والخلاصة فانه قد فتح معهداً حقيقياً للجمال . اذا أمكننا القول — في قرطبة حيث كان يُلقن فن التبرج والتخصب ونتف الشعر واستعمال معجون الأسنان وهندمة الرأس وذلك بألا تترك خصل الشعر متفرقة في وسط الرأس تنحدر على الجبهة وعلى جانبيه فتغطي الصدغين وانما بحسر الشعر الى الوراء ثم طيّه طياً قصيراً على شكل دوائر بحيث يكشف هكذا عن الحاجبين والاذنين وقفا العنق . فقد وضع مفكرة للزي تقضي بأن يُلبس الابيض منذ مطلع حزيران حتى نهاية تشرين الاول وبأن الربيع هو

الفصل الذي تلبس فيه ثياب الحرير الخفيف وسترات ذات ألوان زاهية ، أما الفراء المبطن ومعاطف الفراء فللشتاء . وكان الناس يلتمسون آراءه فيطبقونها نصاً وروحاً . فما من أثر للحضارة العباسية الراقية الانيقة كان في مستطاعه ان يكون اكثر نفاذاً بصورة مباشرة ولا أبعد عمقاً كذلك . ونزولاً عند رأي زرياب المطلق الذي كان يقبل بلا تردد بدّل البلاط والمدينة أزياءهم وأثاث منازلهم وأساليب طبخهم حتى ان اسم بترون العربي دام ايضاً بعد ذلك عدة قرون يتردد كلما اخذ زي مبتكر بالظهور في صالونات شبه الجزيرة .

وعلى ما يظهر كانت بداية التأثير الراجح الذي اخذت النساء تقمن به في اوساط المجتمع القرطبي المثقفة ، في عصر عبد الرحمن الثاني . وسرعان ما تبين ان القصر الملكي ضيق جداً ، من حيث السعة والزخرف الضروريين ، لايواء محظيات الامير العديدات وجميعهن شهيرات في التنافس على الجمال والثقافة والتقوى كذلك : فكل واحدة منهن عملت ، من حسابها الخاص على بناء جامع او سبيل ماء يحمل اسمها في قرطبة . ويجعل دوزي من احدى هاتيك الاميرات — طروب — حابكة للدسائس ، وقد اختط لها صورة قاتمة جداً . غير انه يتضح تمام الوضوح بأن مفضلات الامير هن اولئك اللواتي كان يطلق عليهن لقب « المدينيات الثلاث » وهنّ باعتبار ان كلاً منهن انجبت له مولوداً ذكراً كنّ يتمتعن بمركز « أم ولد » او الاميرة الأم المرموقة . وقد سبق لاحداهن وهي فضل أن نشأت في بلاط هارون الرشيد حيث تلقت تربية شعرية وموسيقية لا مثيل لها ، وأرسلت من بغداد الى المدينة فاستطاع رسل الامير الحصول عليها لحساب سيدهم مع اثنتين لم تكونا اقل منها جمالاً

وثقافة . انه لتأثير فريد من مؤثرات الثروة : ذلك ان احدى « المدينيات الثلاث » لم تكن غير فتاة من نافار ، ُسبيت وهي حديثة السن وبيعت ثم ارسلت الى المدينة فلم تغادرها إلا لتعود من جديد فتطأ ارض بلاد نشأتها وتفتن بأغانيها وملامح فكرها سيد اسبانيا العربية .

نعتقد اننا بيّنا – على الاقل – في هذه السطور الاساسية ، الأثر الذي لا ينكر الذي أثره المشرق وبخاصة الحضارة العباسية على مجتمع المدن الاندلسية في القرن التاسع . ولكي نذكر النتيجة الناجمة عن ذلك في الجزء الاسلامي من شبه الجزيرة ، نكتفي بكلمة عن التجديد الفكري دون أن نقف عنده طويلاً . إذ ذلك نرى شاعراً ، لم يدرس حتى الآن ، وهو يحيى الغزال Yahya al - Ghazal ينظم اشعاراً تارة من الهام روحاني وأخرى هجائي سليط ؛ وعالماً فلكياً رسمياً هو عباس بن فرناس يكتشف في مخبره الطريقة لصناعة البلور ، وفي تجربة مذهلة انطلق اثناءها في الفراغ على طائرة بلا محرك فقطع مسافة ما ثم سقط وحالفه الحظ اذ نهض دون ان يصاب بأي اذى تقريباً ، تماماً كإيكار Icare ثان كان مبشراً بالطيران في اوائل العصور الوسطى (٣٥) .

ولأسباب في مستوى سياسي عيناها فيما سبق ، فان هذا الأثر للمشرق العباسي على اسبانيا ذات التقليد الاموي ، الذي كنا نظن حتى بصورة مبهمة بوجوده دون أن نقدر على اتيان البرهان عليه ، اخذ يكابد منذ مطلع القرن العاشر ان لم يكن من توقف نهائي فعلى الاقل من تراخ اصبح امر استبانة ما خلفه اقل يسراً . ذلك ان الاندلس ، عندما منحت نفسها سلطة خلافية ، انطوت على ذاتها ولم تقف عند حدود الاقتباس بل اخذت تعمل على ان يشع نفوذها كأمة عظيمة

متمدنة ، خارج حدودها . وما من ريب في ان المبادلات بين المشرق والمغرب ظلت ناشطة طوال هذه الفترة كلها التي تمتـد حتى دكتاتورية المنصور بن ابي عامر فان حاشيته تحصي من بينهـا واحداً مشرقياً على الاقل هو الشاعر سعيد البغدادي (٢٦) ، إذ ليس هنالك ما يسمح بإنكار تلك الحقيقة . ولكن هذه المبادلات ما لبثت ان عادت مصحوبة بنشاط جديد على اثر تفكك الخلافة وواتتها الظروف عندئـذ باغتراب الاسبان لانجـاز زياراتهم الدينية للأماكن الاسلامية المقدسة ، وكذلك بقدوم المشارقة الى اسبانيا تجذبهم مراكز الثقافة في عواصم اقاليمها التي تجاوزت شهرتها البحار والتي كانوا سلفاً واثقين الى حد ما من انهم سيلقون فيها الترحاب وانهم غالباً ما يحاطون برعاية وتعين لهم الجرايات الطـائلة . وان آداب السير التي تفرد ابواباً خاصة للأندلسيين الذين قاموا برحلات الى الشرق وبالمقابل للمشارقة الذين أموا اسبانيا ، لتسمح لنـا بالتوكيد دون حذر الخطأ ، على ان القرن الحادي عشر وكذلك القرون الثلاثـة التي تلته ، قـد شهدت ايضاً علاقات ثقافية لا تقل اثراً على الاقل عن العلاقات الاقتصادية .

أما من جهة العلاقات الاقتصادية فانها اخذت ترتقي ارتقاء مدهشاً ؛ ذلك أن اساطيل الموانىء الاندلسية التجارية : اشبيلية ومالقا Malaga ودينيا Denia وفالنسيا وألمرية خاصة كانت في جميع طرق البحر الابيض المتوسط تنقل المنتجات القادمة من مختلف انحاء اسبانيا او من المعـامل الصناعية في المدن الاسلامية الاندلسية : اصناف الأغطية من Chinchilla والمطرزات والسجاد من بازا وكالسينا Baza et de Calsena وفراء السمور من سرقسطه Saragosse والخزف المذهب مـن Malaga والجوهرات

المرصعة والجلود الفائضة عن الحاجة من قرطبة والاسلحة من طليطلة والورق السميك من ياتيفا Jativa وقد كانت تلك العلاقات دائمة على وجه الخصوص مع مصر التي اخذ تأثيرها على اسبانيا يزداد، منذ القرن الحادي عشر، فاعلية، وقد ابرز هذا الموضوع منذ ثلاثين عاماً خلت في مقال للمأسوف عليه احمد زكي باشا (٢٧) وقد جاء علم النقوش العربية نفسه يؤيد وجود هذه العلاقات الاقتصادية: إذ عثر في ألمريا Alméria, على شاهد يحمل اسم تاجر من الاسكندرية وافته المنية في هذا الميناء الاسباني اثناء قيامه بمهمة اعماله عام ٩١٥ هجرية في الوقت الذي كانت فيه هذه المدينة تصنع اقمشة رائعة ذائعة الصيت في العالم (٢٨).

* * *

لقد آن الاوان لأن نعالج مفاهيم ذات مدلول اكثر شمولاً وذلك بأن نفتش في الوقت الحاضر عن الخطوط الاساسية التي تعلق المغرب الاسلامي بواسطتها، طوال القرون الوسطى، بتقاليد الثقافة التي نشأت وتطورت ثم استقرت في الشرق العربي. فثمة تقدير في هذه الناحية، يبرز كل ما عداه ويعرض ذاته منذ البداية: ذلك هو نصيب اسبانيا الاسلامية الضخم غير المشكوك فيه، في الجهد الموسوعي الهائل الذي يتألف منه الادب العربي سواء أكان ذلك في مجال العلوم الدينية أم في العلوم اللغوية. وتستطيع الاندلس الادعاء، بحق، بمكان في الصف الاول تماماً، بين اقطار العالم الاسلامي الاخرى إن في الآثار الرئيسية الاصلية او فيما هو اكثر تواضعاً، شروح الآثار الشرقية. وما علينا لكي نتحقق من

صحة ذلك إلا أن نقلب صفحات فهارس الاعلام المؤلفين كفهرس التركي Khadjidji Khalifa او فهرس بروكلمان باعتباره اقرب الينا . فان اسماء الذين يمتون الى اصل اسباني تتوافر في صفوف متراصة في كل عصر من عصور القرون الوسطى .

اما فيما يتعلق بالعلوم الدينية كقراءة القرآن ودراسة التقاليد الاسلامية والنظرية الفقهية فان العلماء الاندلسيين قد ساهموا ، دون توقف ، على مرّ جميع عصور اسبانيا الاسلامية ، في المجهود العظيم المبذول في تفسير القرآن والشروح الفقهية ، ذلك المجهود الذي لم تنكر فاعليته ابداً لا في المغرب ولا في المشرق على حـــد سواء . ويكفي هنا ان نتذكر بعض الأسماء وبعض التواريخ التي تثبت دوام الجهد في تلك الفروع الخصوصية الى حد بعيد في مجال العرب التأملي . وفي اسبانيا كذلك اشتهرت العلوم القرآنية بالتلاوات والمطابقات على النص المقدس على يد أبي عمرو من Dénia في بداية القرن الحادي عشر ، وعلى يد Fierro من ياتيفا خلال القرن الذي يليه ؛ أما علم التفسير فقــد اشتهر على يد القاضي ابن عطية الذي يؤلف تفسيره حوالي ١١٥ صفحة وقد انتشر انتشاراً واسعاً في اسبانيا والمغرب . بينما استطاع عـــلم الحديث ، من جهته ، ان يلقي مختصين اندلسيين على مستوى جيد نجد اسماءهم مدونة في جميع عصور الثقافة الاسبانية : مثل Ibn Waddah وقاسم بن أصباغ Kasim Ibn Asbagh وابن عبد البر والقاضي إياد من Geuta والنسخة التي مـــا زالت حتى اليوم في المغرب الاسلامي كله ، تصلح بالنسبة لنص صحيح البخاري صلاحية التوراة المترجمــة عن الاصل الى اللاتينية ، هي نسخة محترمة ، كتبها في مرسيا ابن سعادة السني بعناية خاصة وذلك في ٤٩٢ هـ كما سبق ان بينت في المقدمة التي نشرتها

عام ١٩٢٨ [٢٩] . عن نسخ المخطوطات بواسطة الجلاتين à la Phototypie .
أما ما يتعلق بفاعلية الفقهاء فانها مقترنة بأسماء المبشرين بالمذهب المالكي الذين ذكرناهم من قبل وبأسماء العلماء الذين أتوا من بعد ابو الوليد الباجي وابو الوليد بن رشد جد الفيلسوف الشهير ابن رشد وابن عظيم مؤلف التحفة وقاضي قرطبة منذر بن سعيد البلوطي .

كذلك فان فقه اللغة العربية قد ازدهر — في طريق الكلاسيكية الصرفة — ازدهاراً مدهشاً بفضل علماء أنفقوا حياتهم كلها في بلادهم او بفضل آخرين من الكثرة بمكان عزموا على السفر للنهل من منابع المعرفة نفسها في المشرق واتخذوا فيه مستقرهم : كالاندلسي ابن مالك ، صاحب الألفية وهي عبارة عن الف بيت من الشعر تعالج موضوع الصرف والنحو ، وهو بخلاف زعم تردد غالباً ، قد ولد في Jaén باسبانيا وليس في دمشق ، وغادرها ولما يزل يافعاً ليقيم في سوريا حيث توفي عام ٦٧٢ ، وخاصة كأبي حيّان اللغوي الشهير ، بعد ذلك بنصف قرن فهو بعد ان درس في مدينة غرناطة ، مسقط رأسه ثم في ملقا والمريا ، ذهب ليقيم في القاهرة وتعلم باتقان اللغات التركية والفارسية والحبشية ووزع نشاطه في العاصمة المصرية حيث توفي عام ٧٤٥ ، بين علم التفسير والفقه وعلم اللغة وخلف انتاجاً هائلاً . وفي فقه اللغة العربية يحتل وجه اسباني من مرسيا الدرجة الاولى : ذلك هو وجه الاعمى ابن سيده ، وقد عاش في القرن الحادي عشر في حمى مجاهد امير دينيا Dénia فلم يغادر اسبانيا ابداً : ان قاموسه الضخم في الجناس « والمخصص » الذي يقع في سبعة عشر جزءاً يتفق مع قواعد كبار فقهاء اللغة من المشارقة بحذق ، حيث نفتش فيه عبثاً عن

اثر الاصطلاحات اللغوية او ألحان العامة ، التي أدخلتها اسبانيا العربية على لغة المخاطبة .

وفي باب الادب اشتهرت في شبه الجزيرة الايبيرية أسماء ما زالت أسماع المشارقة تألفها حتى الآن : منها ابن عبد ربه ، مولى الامويين في قرطبة في القرن التاسع وبداية القرن العاشر والعقد وهو مؤلفه الرئيسي عبارة عن منتخبات تأثر في اختيارها الى حد بعيد بعيون الاخبار لابن قتيبة ، ولم يفرد فيه للثقافة الاندلسية المجال الذي كانت قد اصبحت جديرة به ؛ ومنها كذلك اسم ابي علي القالي وهو عراقي الاصل ، اقام في اسبانيا ، وفي الوقت الذي كان فيه اديباً على قدر من سعة العلم لا مثيل له ، اصبح مربياً للحكم الثاني ، الخليفة المقبل ، وهي صفة ذات اعتبار عظيم ايضاً ، وقد غدت أماليه كلاسيكية ؛ ومنها ايضاً ابو بكر الطرطوشي At - Turtushi ، وقبل أن توافيه المنية في الاسكندرية حوالي ٥٢٠ هـ وضع بحثاً في الاخلاق السياسية : سراج الملوك . ومن جهة اخرى فان « مقامات » الحريري الذائعة الصيت ، قد نالت ابان حياة مؤلفها نفسه شهرة فائقة في اسبانيا ، وبعد مضي قرن من الزمن عكف الشريشي Sharishi وهو اندلسي من مدينة Jerez ، على شرحها وتفسيرها .

اما ما يتعلق بالاشعار العربية الذين يذهبون الى ان تاريخ نظمها يرجع الى عصر ما قبل الاسلام ، كالمعلقات والدواوين الست ، فانها قد لقيت في شبه الجزيرة الايبيرية شراحاً نابهين : كان اهمهم يوسف الاعلم في سانتا ماريا دي الغارفا Santa Maria de Algarve وهي مدينة صغيرة تقع حالياً على ساحل البرتغال الجنوبي ، غير بعيد عن القسم القديم من سلفس الاندلسية Silves التي اشتهر سكانها في القرون الوسطى بالفصاحة

وعدم اللحن بالعربية . وقد سبق للإفليلي al - Iflili نفسه وهو معلمه (معلم الاعلم) في قرطبة أن وضع في مطلع القرن الحادي عشر شرحاً لشعر المتنبي .

ولئن قضت الضرورة أن تكون هذه السلسلة من الأدلة التي سقناها ، جافة نوعاً ما فذلك انها لم يكن لها من غرض إلا أن تبرهن الى اي مدى أثرت دائرة المشرق والكلاسيكية العربية ، في جميع العصور ، على الاهتمامات الجدية لاسبانيا العربية . حتى لكأن هذه الدائرة ، في الوقت الذي لم تكن فيه طاغية وانما كانت تفسح المجال لظهور بوادر اكثر اصالة في الفكر الاسباني ، تبدو على انها كانت متينة الاثر في غالبية الطرق الادبية التي ساهمت اكثر من غيرها في شهرة الثقافة العربية في اسبانيا . وهكذا نجد انفسنا ، مساقين الى محاولة سبر سريع في الشعر الفني – استعمل هذا التعبير عمداً ، تفريقاً له عن الشعر التعليمي – لعصر الاسلام الذهبي في الاندلس ، ذلك الشعر الذي حللت أهم مواضيعه في دراسة حديثة على غاية ما يرغب من الاناة والدقة العلمية (٣٠) . وتلك المواضيع متعددة جداً : انها ليست مستلهمة ومستوحاة من طبيعة ذات جمال من نوع خاص فحسب وانما ايضاً من الحب والصداقة والمديح والهجاء واللذة والألم ، والتفاؤل والشعور المفجع بالحياة . وقد كانت كلها مستقاة من جميع عصور ماضي الاسلام في اسبانيا وخاصة من القرن الحادي عشر وهي تكشف بلا شك عن نبرة عريقة في اصالتها وشعراء اقوياء الشخصية لم تصب فيهم المؤثرات القصية منالاً او انها كانت تتلاشى قبل وصولها ، وذلك ، غالباً بخلاف ما كان يظن بالاستناد الى مبادىء مسبقة ، كما تعكس في وقت واحد أثر سليقة خاصة ووسط تضافرت

عدة ظروف فجعلته الى حد ما يحكم قوة الاشياء مختلفاً اختلافاً كبيراً عن وسط عواصم المشرق . غير ان هذا الشعر ، اذا ما نظرنا اليه على الاقل نظرة اجمالية ، يبقى في جوهره شرقياً وكلاسيكياً الى حد بعيد . حتى انني اعتقد زيادة على ذلك بأنه يبدو احياناً وكأنه – اذا امكننا القول – التمرين اللغوي لشعب لم تكن العربيـة الفصحى مطلقاً لغة آبائه وأجداده الحقيقية ، ولكنه يبدع فيها . وهذا الشعر يذكرنا بنماذج اوفيد وكتول أو هوراس ، الرائعة في عصر انحطاط اللاتينيـة . إلا أن الشعب الاسباني المسلم كان يظهر ، بمثابرته على الدفاع عن اللغـة وتمجيدها ، تفانيه وتعلقه بالمثل الاعلى الروحي والفكري والعربية كانت السبيل في نطاق الاسلام الفسيح . غير ان هذا الشعب كان يشعر احياناً ، بلا شك ، انـه في النطاق الذي ارتضاه بطيبة خاطر ووثق بنفسه روابطه ، وكأنه في اسار . وبدون ان يفكه تملص منـه في الوقت المناسب ليستنشق الهواء على خير وجه وليسترد روعه ، وهكذا تحرر من قالب العروض التقليدي الطاغي فابتكر الاطارات الاكثر مرونـة للزجل والموشحات لكي يضمنها بطلاقة ، المواضيع العفوية لالهامه الغنائي . ومنذ نهاية القرن التاسع وبعد ذلك بقليل ، في الوقت الذي كان مثقفو المشرق يتناقلون بتحفظ ، اناشيد شعبية ذات تعابير جديدة ، بات من الطبيعي ان تلفت محاولات شاعر اسباني كمقدم بن معافى في وضع اوزان عروض اقل الزاماً . ومن الواجب الاقرار بأن تلك المؤلفات مع كونها جديدة كل الجدة لم تلطخ بشيء مميزات الانتاج في الشعر الكلاسيكي في اسبانيا العربية وقد لاقت ، في البداية ، ضمن الحدود التي تقيدت بها في مطابقة مقياس التورية والنحو ، نجاحاً عاماً في المشرق ، حيث اخذت

تصادف شهرة فائقة الى حد انها دفعت الناس الى محاكاتها وألهمت في ذلك ، تفاسير حقيقية . إذ ليس امراً لا يؤبه به – اذا ما تأكدنا من صحته – أن تكون المخطوطة الوحيدة المعروفة لديوان الشاعر الشعبي الاندلسي ابن قوزمان Guzman الذي عاش في قرطبة إبان حكم المرابطين ، في القرن الثاني عشر ، قد كتبت في قرية صفد ، في فلسطين وأنها اصبحت مثاراً لشرح الكاتب المشرقي المعروف في القرن الرابع عشر ، صفي الدين الحلي .

ومع انه – في مضمار البناء – كان التحرر من قيود الكلاسيكية الصارمة ، اقل عسراً ، والأندلس تثبت ذلك بالدليل القاطع ، فان المشرق سيترك طابعه في اعمق وجه ايضاً على الانشاءات الزخرفية في آثار اسبانيا الاسلامية ومن ثم ، بالتالي ، على آثار المغرب في العصور الوسطى .

ولن نحاول هنا استقصاء دقيقاً عن المؤثرات الشرقية التي يمكن اظهارها ونحن نتفحص أهم الادلة التي ما تزال سالمة في الفن الاسباني – المغربي ، بما يقتضيه الاستقصاء ويستوجبه من تدقيق علمي . لأن كثيرين من مؤرخي الفن الاسلامي الغربي البارزين قد سبق لهم ان قاموا بذلك خلال هذه السنوات الاخيرة بنجاح . ولهذا فإننا سنكتفي بتكرار ذكر نتائجهم الجوهرية . ويبدو جلياً ان الفن الاسباني – المغربي ، ذلك الذي يتجلى ، قبل كل شيء في جامع قرطبة الكبير ، خضع ، في خلال التبدلات المتتالية في هذا البناء المقدس ، لمؤثرات من بلاد ما بين النهرين لا يستطيع احد ان ينكرها . ولقد اقتبسها ، في الوقت الموافق عن طريق افريقية التي تعتبر « مرحلة في الطريق ما بين بغداد والاندلس » او من جهة ابعد

تارة اخرى ايضاً « عن طريق فسطاط ابن طيلون او القاهرة في ايام الفاطميين الاوائل » . وفي مقال رئيسي تمكن جورج مارسي Georges Marçais من القول : « إلا أن الأثر الثابت الذي يتركه الشرق ، على ايام الخلفاء ، لم يكن فقط في قطاع الأبنية وزخرفتها . فان الفنون الصناعية تتسم هي ايضاً بطابع هذه الطرائق الغريبة . فخزف مدينة الزهراء الذي ما يزال بكميته المذهلة ينتظر من يظهره للناس ، يؤكد من ناحية فن صناعته ، ومزج ألوانه والزخرف كما لو انه من اصل ما بين النهرين . اما صناديق العاج التي تعتبر مفخرة المعامل التابعة للخلفاء ، فانها تقتبس مواضيعها من الرسوم الزخرفية : كمناظر الصيد والموسيقى ومجالس اللهو من قائمة الفن الأسيوي التقليدية (٣١) » .

* * *

ان تأثير المشرق على الفن العربي الاسباني ، هذا التأثير الذي كان ، في السوانح الراجحة ، فعالاً دوماً ، والذي يتكشف هكذا من خلال التعبير الشعري والمعماري لدى مسلمي شبه الجزيرة ، لم يكن على تطور الفكر الاندلسي ، كما يبدو ، بأقل حدة منه في ذلك . فان اسبانيا لتفخر اليوم بذلك الجهد الفلسفي وذلك النزوع الصوفي في عصورها المشبعة بروح الاسلام : فهي تطالب في ان يكون ذلك كله من ارثها الثقافي وتفسح مكاناً ، الى جانب شخصيات كسنيك Sénèque وتيريزة الافيلية Thérèse d'Avila ، لابن رشد وابن صبعين Sab'in ولابن ميمون Maïmonide ايضاً فان السيد Miguel Asin حالياً ، استاذ الدروس في الفلسفة الاسبانية — العربية في العصور الوسطى ، لم يتمالك أثناء ذلك من التصريح بعد معاناة

طويلة لآثار رؤساء تلك المذاهب : « ان تاريخ الفكر الفلسفي في اسبانيا المسلمة هو اقتباس امين من الثقافة الاسلامية المشرقية ، ودون أية رابطة ايجابية فان التقاليد المحلية تفصح عن ذلك » .

هذا التأكيد لم تفته القوة ولا الفصاحة ، وان مغزاه ليتجلى تماماً كما انه يزداد نضرة لو أننا أضفنا بأن الفلاسفة المسلمين كانوا في المشرق كما كانوا في المغرب علماء لاهوت في الوقت نفسه . غير انه لم يكن من الممكن ، في اسبانيا في نطاق المذهب المالكي الضيق ، المعادي لكل تجدد ، افساح المجال ، دون مخاطرة لأية مناظرة ، مهما كانت متمكنة ، تعطف على الاتجاهات التحررية ، التي اخذت تظهر وتتركز ، تحت ستار المذهب الشافعي على الحدود الاخرى للبحر الابيض المتوسط . وفيما يتعلق بالتأمل الفلسفي الاسباني الذي جاء بروحه متأخراً في المغرب الاسلامي على كل حال ، ولم يأخذ بالظهور فعلاً إلا في عصر اسرة الموحدين ، يجب دون شك ألا نغفل التذكير بالتأثيرات غير الشرقية في نوعيتها : كتأثيرات علماء اليهود الاندلسيين الذين طرحوا مسألة التوفيق بين الايمان والعقل ، قبل ان يطرحها مواطنوهم المسلمون ، للوصول الى حلول . وأما الحمية الصوفية فيبدو من الراجح انها تجد ما يبررها في الظروف التاريخية : فلقد سُهّل اندفاعها منذ مطلع الثاني عشر وحتى وقت سقوط مملكة غرناطة العربية في عام ١٤٩٢ ، ليس بتقاليد الحرب المقدسة التي عقد لواؤها ضد مسيحيي اسبانيا فحسب ، وانما بما صادفه من تقبل حماس من قبل المسلمين الاسبان في الاوساط المتدينة ، نظام الرباط Discipline de Ribat خاصة لا بل وأكثر من ذلك ، هو انعزال روحي موزع بين ممارسات السلك وبين المران العسكري ، الذي يذكرنا ، في نواحي متعددة ، بالمثل

الاعلى عند منظمات الفروسية الاولى لمسيحية العصور الوسطى ، الذي كان حربياً ودينياً في الوقت نفسه .

كذلك فان بعض مؤلفات الفكر اليوناني الشهيرة من العصور الكلاسيكية والهللنسية قد امكن استنساخها لحساب مراكز الثقافة في اسبانيا العربية عن طريق المشرق الاسلامي كالمعتاد . وقد سبقت منا الاشارة الى التحريات التي عمل الامير عبد الرحمن الثاني على القيام بها في العراق من اجل الحصول على نسخ عن ترجمات الآثار العلمية لبلاد فارس القديمة وبلاد اليونان . إلا ان سليله : الحكم الثاني ، حتى قبل ان يصل الى كرسي الخلافة في عام ٥٣٠ ه (٩٦١ م) هو الذي بصورة خاصة ، بذل في هذا المضمار الجهود التي كان لها الأثر الحاسم على الاستشراق السابق للتأمل الاسباني في مجـــال العلوم الرياضية والطب . وكان هذا الخليفة نفسه ، على حد تعبير كاتب عربي اسباني في القرن التالي لحكمه ، هو سعيد الطليطلي : de Tolède في كتابه « تصانيف الأمم » Catégories des Nations : « هو الذي عمل على جلب أهم المؤلفات الرئيسية النادرة ، المتعلقة بالعلوم القديمة والحديثة ، من بغداد ومصر وأماكن اخرى في المشرق . وجمع منهـا ، في اواخر حكم ابيه ومن ثم طيلة حكمه هو نفسه ، عدداً يضاهي تقريباً العدد الذي جمعـه الأمراء العباسيون برمتهم ، في وقت اطول بكثير . » والمكتبة التي جمعت هكذا من قبل الحكم الثاني في قصره بقرطبة كانت غنيـــة غنى لا مثيل له : فلم تكن تحتوي على اقل من ٤٠٠٫٠٠٠ مجلد والفهرس الذي اقتصر على ذكر العناوين وأسماء المؤلفين فقط قد ملأ اربعين قائمة وكل قائمة تحتوي على خمسين صفحة . فان شبكة حقيقية لحساب العاهل الاسباني ، من الباحثين dépisteurs والسماسرة والنساخين قـد انتشرت

وأخذت تتابع تحرياتها عن التآليف في طول العالم الاسلامي وعرضه . وفي قرطبة نفسها جند فريق هائل العدد من الكتبة والمجلدين والمزخرفين ، استقدم بعضهم من صقلية بل وحتى من بغـــداد ، وكانوا يعملون تحت اشراف موظف موهوب كبير من حاشية الخليفة ، وذلك على إغنـــاء تلك المكتبة الرائعة التي تحتوي على النفائس . وسرعان ما اخذت الطبقة الارستقراطية في العاصمة تقلد العاهل بتشكيل مكتبات خاصة غنية حتى لقد استطاع احد المؤرخين القول بأن مائة وسبعين امرأة ، في ضاحيـة قرطبة الشرقية وحدها ، يعملن يوميـــاً في نقل نسخ من القرآن بالخط الكوفي (٣٤) وكانت عاصمة بني أمية في اسبانيا ، ابان خصومتها المجيدة لعواصم المشرق العربية ، تتمتع آنذاك داخل البلاد وخارجها ، بشهرة المجد في طلب العلم ، لم تكن أية مدينة اخرى في شبه الجزيرة لتجرؤ على التفكير في منافستها فيها . واحتفظت بذات الشهرة الى مـــا بعد سقوط الخلافة وبخاصة الى عهد المرابطين في القرن الثاني عشر بحيث تمكن ابن رشد من كتابة هذه الملاحظة المجازية :

اذا مات عالم بأشبيلية فأريد بيع كتبه حملت الى قرطبة حتى تباع فيها وان مات مطرب بقرطبة فأريد بيع آلاته حملت الى اشبيلية .

« عندما يراد بيع كتب عالم مات في اشبيلية فانها تنقل الى قرطبة ، أما اذا اريد عرض آلات موسيقار مات في قرطبة فانهـا على العكس تنقل الى اشبيلية » .

ولم يبق كتاب واحد من هذه المجموعة العجيبة من الكتب التي جمعت على ذلك المنوال في القرن العاشر بدافع من رغبة واعية لدى امير غني ،

صديق للآداب والعلوم . وقد اشرت منذ اربع سنوات الى مجلد منها عثر عليه في فاس : فهو يحمل تاريخ ٣٥٩ (٩٧٠ م) الجدير بالتقدير مع الدلالة على انه نسخ لأمر الخليفة الحكم الثاني (٣٦) ان جزءاً ضئيلا جداً من هذه المخطوطات العديدة ما يزال قابعاً حتى الآن دون شك في خبايا مكاتب مجهولة وقد نجا فلم يطله الأمر الذي صدر في اسبانيا المسيحية في القرن السادس عشر بعد اعادة فتحها ، باتلاف الكتب العربية . إلا أن هذه المكتبة الخليفية الكبرى قد نقصت كثيراً بعد جمعها بوقت قليل ، وذلك عندما اراد المنصور بن ابي عامر أن يضع حداً للشكوك التي كانت تحوم حول صحة معتقده الشخصي وأن يصد حركة المقاومة التي كانت الاوساط المحافظة في قرطبة ترعاها ضده في الخفاء ، فاضطر الى أن يحسم الأمر بحركة مسرحية في تخريب الآثار الفنية وهو في قرارة نفسه اول من كان يقدر مدى ما في هذه الحركة من تدنيس لحرمات الفن ، وقد نقل الينا سعيد الطليطلي (٣٧) بأن دكتاتور اسبانيا العربية « أمر بأن تحرق وتتلف ، من هذه المكتبة ، المؤلفات التي تعالج العلوم القديمة : فبعضها اذن قدم طعمة للنار ؛ وبعضها ألقي به في آبار القصر وخبيء في باطن الارض وتحت الحجارة او اتلف بأساليب اخرى » . إذ أن هذه الكتب ، كما يردف الكاتب نفسه : « لا ينظر اليها الشيوخ بعين الرضى وينتقدها الكبار . وكان كل من يقرأها متهماً في نظرهم بالهرطقة ومعتبراً أنه ملطخ بالزندقة » . ومن ذا الذي يعلم الى أي حد عمل هذا المسلك الانتهازي ، المؤسف من جانب المنصور ، في اعاقة اندفاع المغرب العلمي على نحو محسوس في ذلك الميدان الذي تصدى له لإحياء الشعلة التي افضى بها اليه المشرق الاسلامي .

ومع ذلك فان هذا الجهد التأملي في العالم الاسباني – الاسلامي خلال العصور الوسطى ، يبقى دون ريب ، على الرغم من كبح جماحه على ذلك النحو ، اكثر النواحي أصالة وأبرز النتائج في الثقافة الاندلسية المتولدة مباشرة من ثقافة المشرق ، التي وفق عرب اسبانيا بينها وبين البيئة الطبيعية والاخلاقية والاجتماعية كما تبقى الانتاج البكر لحضارة قد أخذت ، في شبه الجزيرة الايبيرية تعي شخصيتها شيئاً فشيئاً ، غير انها دائمة الاهتمام في ان تصون للغة العربية مقامها الادبي الرفيع والتقليد الكلاسيكي سالماً . هذه الصفات المميزة الناجمة بالضرورة عن بنية التربية والمناخ والالتحام الذي طال عهده وتمازج عناصر السكان المتزايد ، بدأت منذ القرن العاشر تظهر في مختلف مقومات هذه الحضارة الاسبانية الاسلامية وبعد القرن الخامس عشر في النطاق الافريقي من اشعاعها .

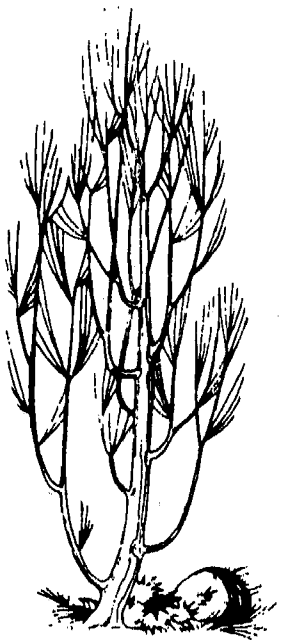
ان استعمال نمط من اللباس في متناول الجميع نوع من الحياة مشروط بالحضرية والميل للتجمع في مدن وضياع والتنظيم العقلي للخدمات المدنية ، كل ذلك قد ساهم ، بلا شك في تكوين شعب على حده كان القادم من مصر او سوريا او العراق يستطيع ان يشعر بينه في البداية انه في غير محيطه بعض الشيء ، إلا أنه لم يكن يمكث طويلاً حتى يلقى نفسه ثانية في بيئة من جديد او يكاد ، وأن بصفته مشرقياً ينال امتيازاً بلا ريب وأن هذه الصفة من شأنها ان تمنحه مراعاة تبرهن له ببلاغة فريدة على ان الروابط التي تربط اسبانيا وغيرها من البلدان الاقرب منها بمهد الاسلام ، كانت بعيدة عن الانفصام . فسيبقى الاشتهار بأصالة النسب العربي ، حتى آخر ايام مملكة غرناطة ، في شبه الجزيرة ، هو الدليل الوحيد للاعتراف بنبالة الدم الحقيقية . حتى ان المرء يصل في ذلك الى التساؤل فيما اذا كانت اسبانيا المسلمة في العصور الوسطى ، لم تكن ،

في الطرف الآخر من العالم العربي ، بالنسبة لهذا العالم نفسه ، ولاية من ولاياته ، ولاية مزدهرة ، متميزة بلا شك . إلا أنها مع ذلك ، وهي الطيعة للقاعدة العامة ، كانت فحسب مساعدة نبيهة ، خاضعة للنظام مشاركة في الجهود المتسقة لرواد الحضارة العربية التي ظلت هي نفسها من قرطبة الى القاهرة ومن القاهرة الى بغداد .

لا ينبغي ان نذهب الى هذا المقدار . هي ، وايم الحق مقاطعة من مقاطعات الاسلام ولكنها مقاطعة بعيدة ، خاصة في الوقت المواتي ، حتى انها فقدت شيئاً فشيئاً العاطفة الحسية والايجابية بتبعية روحية إذ انتهى تذكر الرياض السورية والواحات العراقية والنيلية الى ان يصبح موضوعاً ادبياً بسيطاً تطرقه اجيال من الكتاب والشعراء . إلا انها قبل كل شيء ، مقاطعة على تخوم الاسلام النهائية ، تقع في اوربا ، دائمة الاحتكاك ، سواء في داخلها ام خارج حدودها ، مع مسيحية ، اختلطت بها وعرفتها اكثر من اية دولة مسلمة اخرى . فلئن كان ما تناله اسبانيا المسلمة من تلك المسيحية ضئيلاً في حين كانت على العكس تنقل اليها كثيراً من ثقافتها الخاصة ، فانها يسرت لتبادلات متقابلة والمؤثرات سوف تبدأ في وقت مبكر بالقيام بدورها ولن ينكر وجودها طوال العصور الوسيطة . وسنبرهن الآن – او نحاول أن نبرهن على الاقل – بأن الأمر الذي اعطى سكان الاراضي الاسلامية في اسبانيا سيماءهم الحقيقية الاصلية ، هو بصورة خاصة تقريباً وقبل كل شيء ، مجاورتهم للغرب المسيحي ، على الرغم من تعلقهم التقليدي بالمشرق .

الفصل الثالث

اسبانيا المسيحية
والحضارة العربية الاسبانية



اسبانيا المسيحيّة
والحضارة العربيّة الاسبانية

تجتهد نظرية حديثة لا تنقصها الأدلة ولا الحجة المقنعة ، في حل معضلة سبق ان طرحها عدة مؤرخين . فهي تسعى لاقامة الدليل على ان تدفق الاسلام غير المتوقع ، والمفاجيء ، في اوائل القرن الثامن ، على نظام العالم اللاتيني الاقتصادي ، كان له نتيجة مفجعة في فصم الرباط الادبي لهذا العالم الذي كان يبدو على أشد ما يكون من القوة : وحـدة البحر الابيض المتوسط (٣٨) ستكفي قوة التوسع العربي الذي لا يقاوم ، في بعض سنوات حتى تنفصم نهائياً عرى هذا الوثاق بيد ان الاجتياحات الجرمانية قـد أبقت عليها وهي تنشر راياتها على ارض رومانيا القديمة . وعلى هذا النحو كانت نهـاية النهج القديم ، منعطفاً اساسياً في مصائر اوربا الغربيـة ، في ذات الوقت الذي اخذت فيه مؤثرات القسطنطينية تكيّفها في القـالب

البيزنطي . وقد اصبح البحر الابيض المتوسط ، بحرنا القديم Mare Noetrum ، بحيرة اسلامية ، وفقـد نفوذه في تجارة العالم اللاتيني ومبادلاته الفكرية . فبزغ عصر مظلم تقلّصت فيه دول اوربا لتعيش منطوية على نفسها واذ لم يعد بعد ذلك البحر الروماني بحرها ابـداً ، حولت شيئاً فشيئاً محور حياتها السياسية نحو الشمال . وسينقضي قرن كامل حتى يأتي في عام ٨٠٠ تكوين الدولة الكارولنجية لتستهل عهد العصور الوسطى ، في تاريخ اوربا القلقة المتعبة بإزاء اسلام يطفح حيوية ومروءة ، وهي بذلـــك توسّع في الثغرة التي فتحت بين الشرق والغرب بفقدان البحر الابيض المتوسط .

واذا انطلقنا في البحث من هذه المسألة ، واذا اجتهدنا في تعداد ماذا يكون من امر تطور العالم القديم بدون دخول القوة العربية اليه ، فانــه يمكننا – على ما نظن – الاسهاب الى ما لا نهـاية . فمن المؤكد ، فيما يتعلق باسبانيا نفسها ، بأن فتحها من قبل المسلمين قد جعلها تدبر زمناً طويلاً عن السبل التي اتبعتها (اشلتها) في العصر الوسيط كل من فرنسا والمانيا وايطاليا ثم ما هي من جهة اخرى ، – وقد سبقت لنا ملاحظة ذلك – العوارض Incidences الخارقة التي كان يمكن ان يحدثها اجتياح لفرنسا يقوم به المنصور في اواخر القرن العاشر أي في الوقت الذي كانت تلفظ فيه الدولة الكارولنجية انفاسها الاخيرة ؟ ولن نذهب بعيداً لنتساءل لماذا لا تلح المدرسة التاريخية الحالية بمزيد من التأكيد على هـذا الظرف الذي لا مرية فيه : ألا وهو ان البحر الابيض المتوسط عندما اصبح بحيرة اسلامية لم يصبح بذات الوقت بحيرة بربرية ، بحراً مظلماً ، كثيف الضباب لم تبق على شواطئه ولا منارة واحدة تنيرها .

ان الهدف الذي نبتغيه هنا هو مختلف وأكثر تواضعاً : هو القاء الضوء

على تداخل Interpenetration الاسلام والمسيحية في شبه الجزيرة الايبيرية وهو تداخل حقيقي ، مستمر في اسبانيا في العصور الوسيطة سواء في داخل الحدود الاسلامية ام في خارجها ؛ وكذلك هو في ان نظهر الاندلس على انها لم تكن حتى في ذات الوقت الذي تعرف بأنها لا تقهر ، لتمتشق السلاح في وجه جيرانها ؛ وانما كانت هناك سنوات طويلة لهدنات حقيقية أعطت الاندلس خلالها اكثر مما اخذت ؛ كما برهنت في اغلب الاحيان على عقل متسامح ازاء رعاياها المسيحيين ، لم يعد احد يماري فيه اليوم .

ما من مكان كانت العلاقات الدائمة ضرورية فيه بين الاسلام والمسيحية ، اكثر منها في اسبانيا العربية ، فان معظم سكانها قد احتفظوا ، على الاقل في القرن الاول من حكم الاسلام ، بالديانة القديمة في دولة الفيزيقوت ؛ وفيما بعد ، حتى عقب اعتناق أعداد غفيرة من الرعايا النصارى اهل الذمة للاسلام ، للاستفادة من نظام مالي افضل ، بقيت نسبة ضخمة Mozarabes من الرعايا المسيحيين تشكل في المدن الاندلسية وحدات مزدهرة ، لها كنائسها وأديرتها ورئيسها المسؤول (Depensar) وجابيها الخاص ، (Censor) وقاضيها الذي يطبق في محكمته ، تحت اشراف الادارة الاموية ، القانون القوطي القديم من Liber Judicum اما الاضطهادات التي عانتها فقد كان يسببها دوماً مسيحيون متهوسون يرفضون ان يتراجعوا عن القدح في معتقد سادة البلاد بينما كان أبناء بجدتهم الدينية أنفسهم ينكرونها علناً . سواء في ذلك العلمانيون والقسس وسواء أكان امير او خليفة فانهما كانا يقرّان ، بصورة دائمة تقريباً اختيار اصحاب الرتب الكهنوتية ، مطران طليطلة واسقف قرطبة . حتى انهما كانا يستعملان هؤلاء الاحبار في سفارات

او مهمات سياسية سرية (٤٠) في الوقت المناسب . فلم تكن رؤية الايكليريكيين الاسبان يتضلعون في معرفة اللغة العربية وآدابها من الامور النادرة مطلقاً . وهذا ما يجعلنا نفترض وجود اختلاط ودي ، واثق ، ومتصل بين مختلف عناصر السكان . بل نملك على هـذه الناحية شهادة معاصرة لا نستطيع الارتياب في قيمتها ذلك لأنها صادرة عن واحد من أنشط ابطال المقاومة ضد الاسلام في شبه الجزيرة في القرن التاسع ألا وهو الفارو القرطبي le Cardouan Alvaro . فبينما يحزن لفتور مسيحيي اسبانيا وجهلهم باللاتينية نراه يمجّد بفصاحة نادرة الثقافة الاسلامية – الاسبانية التي كانت في طور التكوين وذلك عندما يهتف في مقطع ، كثيراً ما يستشهد به من كتابه Son indiculus Luminosus « ان أبنـــاء طائفتي يحبون قراءة الأشعار وتراث الخيال العربية ؛ وهم لا يدرسون كتابات رجال ليدحضوها وانمـا يدرسونها ليكتسبوا نطقاً عربياً سليماً ورفيعاً ... جميع الشباب المسيحيين الذين يعتبرون لموهبتهم لا يعرفون سوى اللغة العربية وآدابها ؛ انهم يقرأون ويدرسون الكتب العربية بنشاط منقطع النظير ؛ ويشكلون منها مكتبات هائلة بأثمان باهظة ويعلنون عن هذه الآداب في كل مكان انها مدهشة ... فيا للألم ! لقد نسي المسيحيون كل شيء حتى لغتهم الدينية انك تكاد لا تعثر بيلنا ، إلا بجهد على واحد بالالف يعرف كما يجب ، كتابة تحرير الى صديق باللغة اللاتينية . أما اذا كان الغرض الكتابة في العربية فانك تجد جمهرة من الاشخاص يعبرون على وجه موافق وبلياقة فائقة في هـــذه اللغة وسترى انهم ينظمون اشعاراً ، تفضل من وجهة نظر الفن الأشعار التي ينظمها العرب انفسهم » .

لم تكن الهوة اذاً بين الاسلام والمسيحية منذ ذلك الزمن القـديم لا

بالسعة ولا بالعمق اللذين طاب لنا تأكيدهما زمناً طويلا . حتى ان الاختلاف في الايمان لم يكن عائقاً في وجه علاقات زوجية ، ولدينا امثلة عديدة على وجودها حتى خلال القرن الذي يلي الفتح مباشرة ، وقد شهد هذا القرن زواج آجيلون ارملة روذريك ملك الفزيقوت من عبد العزيز ابن القائد موسى بن نصير او زواج لامبيجي ابنة الدوق اوديس الاكوتاني من Munuza رئيس مسيرة البيرنية المسلم . وفي كل العصور تؤكد لنا ذلك مزاوجات من الطرفين بين شخصيات من الطبقة الارستقراطية او من ذوي الدم الملكي : فستكون جدة عبد الرحمن الثالث الكبير الاميرة المسيحية دونيا ايذيقيا Dona Iniga وسيتزوج الوصي المنصور احدى بنات ملك نافارا سانشو الثاني وسيدعها تطلق على ابن علاقتها الاسم الروماني Roman المتداول : سانشويلو Sanchuelo (٤٢) حفظاً لذكرى والدها . ومن جهة اخرى فان قرطبة كثيراً ما حظيت في القرن العشرين بمشهد السفارات قادمة من ممالك الشمال . وكان البلاط « يزدهي » احتفاء بقدمها ، بأبهى حلله ويخرج بمواكب رائعة تبعاً لبروتوكول دقيق . ولكن هذا لم يكن يذكر اذا قورن بالأبهة التي كان الخليفة يظهرها احتفاء بالسفارة التي كانت تأتيه في زيارة رسمية حتى عاصمة ملكه من قِبل امبراطور القسطنطينية .

ولقد نوّه بتبادل علاقات سياسية طوال القرنين التاسع والعاشر بين بيزنطة وقرطبة . فوجود هذه العلاقات نفسها هو بحد ذاته دليل على الامتياز الذي حصلت عليه الدولة الاموية في نظر اوربا المسيحية ، في الشرق والغرب على حد سواء . لا سيما وأن المبادرة في هذه العلاقات التي يبدو لأول وهلة انه لم يكن لها ما يسوّغها ، قد اتخذها عام ٢٢٥

هجرية (٨٣٩ - ٨٤٠) الامبراطور تيوفيل من الاسرة الاموية : فقد أوفد سفيراً يونانياً الى عبد الرحمن الثاني ومعه كتاب يطلب فيه من امير اسبانيا العربية عقد معاهدة صداقة وفي نفس الوقت يدعوه بكلمات مبطنة ليأخذ في المغرب المشرقي مكان العباسيين وأغالبة افريقيا ، حكام المقاطعات الاسميين . فكان جواب الامير الاموي مؤدباً في عدم قبول قصده ولكنه قابل البازيليوس Basileus بمثل تهذيبه فسارع بارسال موفدين اليه هما الشاعر الغزال al - Ghazal وأحد الفلكيين ويبدو انه هو مخترع الساعة المائية الشهيرة التي تعين رواية اخرى مكان اكتشافها في بغداد وتجعلها احدى الهدايا التي قيل ان هارون الرشيد قدمها الى شارلمان . وقد عامل تيوفيل والامبراطورة تيودورا مبعوثي قرطبة ، معاملة رائعة في القسطنطينية وعادا مثقلين بالهدايا للأمير الاسباني (٤٣) ، وعلى هذا النحو كانت تعقد عند كل مناسبة سلسلة من الاتصالات : وأصبح تبادل السفارات مؤكداً فيما بعد بين قرطبة وبيزنطية في ظل حكم عبد الرحمن الثالث وابنه الحكم الثاني ؛ ونحن نعرف بأن هذا الاخير قد طلب من نيسيفور فوكاس أن يبعث اليه خبيراً في صنع الموازييك بقصد تزيين التوسع الذي كان يزمع القيام به في جامع العاصمة العظيم (٤٤) وها هنا مبعث تأثير اساتذة الفن البيزنطي الذي مارسوه على فن الزخرفة في بعض مباني العاصمة الأموية وهو تأثير معقول من الناحية التاريخية ولا ريب فيه .

وكانت غمامة مفاجئة تأتي مرات مختلفة ، في وسط حقب السلام الداخلي لتعكر سكون السماء الاندلسية لفترة ما . ويبدو ان الأثر الذي تركه النورمان على حضارة الغرب العربي بنزولهم المتواتر على سواحل

شبه الجزيرة الايبيرية ، مهما كان هيناً فاننا لا نستطيع السكوت بدون صعوبة عن التذكير بتلك الغارات الاسكندينافية المفاجئة وان كانت متباعدة ؛ وهي وان لم تكن تنقلب ابداً الى مآس كاملة ، إلا انهـا كانت تجعل اسبانيا المسلمة على اهبة الاستعداد كذلك الخطر الفـاطمي الذي ارغمها على ان يكون لديها اسطول بحري قوي وبحارة متمرسون ووسائل دفاع صامدة على شواطئها . فمن الامور المتفق عليهـا بالاجماع أن غـــارات الفيكنز الجريئة ، اولئك الذين يدعوهم المسلمون بالمجوس ، لم تخلف أي أثر في البلاد . ومن المحتمل أن يكون هذا التأكيد حكماً متعجلاً : اذ بدون ان نقدر على البرهان عليه بعد بصورة قطعية فانه يبدو واضحاً ، اذا مـــا رجعنا في ذلك الى بعض النصوص العربية بأن النورمان لم يرجعوا جميعهم الى ركوب البحر بل ان جماعـات صغيرة منهم استطاعت الاقامة بموافقـة اسياد المملكة الاموية في بعض اجزاء شبه الجزيرة وبصورة خاصة بالقرب من اشبيلية . وغني عن البيان أن بعض الاجيال كانت كافية لصهرهم في بوتقة الأمة الاندلسية وثقافتها .

* * *

لم تكن تأثيرات اسبانيا المسيحية على اسبانيا العربية ، قبل ان تصبح هذه تابعة سياسياً لافريقيا ، تقارن ولو من بعيد ، بتأثيرات اسبانيا العربية على اسبانيا المسيحية حتى ولو أخذنا بعين الاعتبار الاشياء المتفرقة Apparts Sparadiques والمقتصرة على نطاق الفن وحده من قبل بيزنطة البعيدة : تلك التأثيرات تمكنت الاندلس ، طوال تلك العصور ذاتها من ان تبسطها على الممالك الاسبانية في الشمال وعلى جنوب فرنسا العربي بطريقة اقـــل

مباشرة . ان الاشعاع الذي كانت تعكسه قرطبة على المسيحية الغربية لا يمارى فيه وهو الذي يعلل ، من ناحية اخرى ، الاستعارات من جهة واحدة ، طبيعية اكثر من ان تكون مبادلات حقيقية . ومنذ ذلك العصر وهذا الاشعاع آخذ في تأكيد ذاته في بعض الوثائق ، النادرة جداً مع الاسف : ان الشاعرة الألمانية Hroswitha التي نظمت أبيات شعرها في منتصف القرن العاشر تدعو العاصمة الاموية بـ « زينة الدنيا » ويرسل اوتون الاول امبراطور جرمانيا السفير جان دي غورتس في عام ٩٥٦ الى عبد الرحمن الثالث فينقل الينا مترجم حياة هذا السفير الذي شعر به ازاء حضارة كان مع ذلك يعرف عنها من قبل انها رقيقة وناعمة (٤٦) .

عندما نتقصى الأمور التي كان يمكن ان تتألف منها تلك المؤثرات فاننا نلاحظ انه يجب ألا نغفل دور بعض بقايا الأشياء الحالية التي صمدت من عصر الفيزيقوت ، في علم الاقتصاد الاجتماعي في اسبانيا المسلمة . فلم يكن العرب اول من اقام في الاندلس نظام اللاتيفونديا Latifundia الذي كان في اساس الاقطاعيات في العصور الرومانية وبالتالي في اساس نظام الرق ؛ فما فعلوا إلا ان رسخوه ، على النحو الذي وجد فيه من قبل في زمن ملوك القوط وطليطلة . وقد استطاع بعض كبار الملاكين من ذوي النشأة النبيلة ان يحتفظوا ايضاً ، بارتباطهم بروابط الزواج من أسر عربية بملكية تلك الأملاك الكبيرة ويعملوا على افادة سادة الاندلس الجدد من طريق استخدام هذا النظام ، وهو على الرغم من ان فيه من عدم الانسانية ما يكفي اذ يخضع الفلاح ، حتى ذاك الذي يولد حراً ، لظرف يقرب من العبودية فقد سبق له ان اظهر مزاياه زمناً طويلاً . ولما كان عرب شبه الجزيرة قد انصرفوا بالدرجة الاولى للحفاظ على التقليد السوري

في اسبانيا سالماً ومن ثمّ الى تقبل تجديدات العباسيين ضمن نطاق الحياة المادية ، فانهم لم يتخيروا بلا ريب إلا القليل من حضارة اسلافهم المباشرين كما وجدوها لدى احتلالهم البلاد . واذا طرحنا جانباً بعض الأدلة القديمة المتبقية في التنسيق المعماري لبعض الآثار فليس هناك ، على كل حال ما يعطينا البرهان على ذلك . وقد اصبحت ثقافة المستعربين Mozarabes بالطبع هي الوريثة الوحيدة تقريباً للتقليد الفيزيقوتي ومع ذلـــك فانها ، حيثما تتميز عن الثقافة الاسلامية تكون في اعلى درجة كافية من الركاكة .

هناك تأثير آخر ، وهو ليس من السهل تحديد مداه ايضاً ، يجب ألا يهمل وهو يتعلق باسبانيا الاسلامية في ذلك العصر : ذلك هو الأثر الذي استطاعت ان تحدثه فيها ، خلال فترة طويلة وسقات السلاف المتتابعة او صقالبة اوروبا (٤٧) ويجب ان نبادر الى الاتفاق على معاني هذه الكلمات فهي مع ذلك ذات الكلمات الافرنسية « عبيد » وتعني الاوزوبيين الذين هم من اصل رقيّ وكان مسلمو اسبانيا يشترونهم لادخالهم في الجيوش ، وفي بعض الحالات لاستخدامهم نظاراً او رؤساء للخدم . ولقـــد اقتنوا منهم في القرن العاشر بصورة خاصة ، عدداً هائلاً : فقد كان يوجد منهم في بعض الاحيان اكثر من خمسة عشر الفاً في قرطبة وحدها . وكان هؤلاء يردون من بلاد اوروبا الوسطى والجنوبية وشواطىء البحر الاسود والكلابر جنوب إيطاليا Calabre ولومبارديا ، ومنهم ايضاً من كان يرجع اصله الى شمالي شرقي القارة . أما الخصيان المهيأون لحراسة الحريم فكان تجار اليهود هم الذين يقدمونهم ؛ وكان لهؤلاء التجـــار عملاء وصيادون rabatteurs في جنوب فرنسا وحتى في فردان . كثيرون من هـــؤلاء الصقالبة قـــد أعتقوا وبخاصة اولئك الذين كانوا جزءاً من خدم بيت

الخليفة : وبعد ان تحرر هؤلاء الموالي من حالة العبودية بقوا في خدمة العـــاهل الخاصة ولم يلبثوا إلا قليلاً حتى بلغ شأنهم في مملكة قرطبة مبلغاً عظيماً ؛ وسرعان ما نراهم وقد كوّنوا طبقة حقيقية ذات امتياز ؛ وفيما بعد نجدهم ، على اثر سقوط الخلافة ، يكوّنون عصبة تناهض في آن واحـد الحزب العربي الاندلسي وحزب البربر بانتظار ان يتمكن اشدهم بأساً من تنظيم امارات صغيرة مستقلة لأنفسهم : في دينيا Dénia وفي فالانسيا وفي تورتوزا على طول الشاطىء الشرقي لشبه الجزيرة . واننـا نملك البرهان على ان هؤلاء السلاف قد دخلوا جميعهم في الاسلام بسرعة فائقة : فباعتبار انهم كانوا يجلبون الى اسبانيا بصورة عامـة وهم صغار السن فانهم كانوا يتعلمون لغـــات البلاد ويصبحون اندلسيين اذا صح التعبير . وعلى الرغم من انهم كانوا يفقدون كل صلة لهم ببلادهم الاصلية إلا أنهم كانوا يستطيعون ان يجلبوا معهم ، مهما كان شأن مـــا يجلبونه بسيطاً ، لا تقاليد ثقافية فحسب وانمـــا ايضاً بعض الفنون الجديدة والمفردات الخاصة ذات الصلة بها في الوقت نفسه .

* * *

ان اعمق أثر كما يبدو تركه سكان شبه الجزيرة الاصليون في العصور الوسطى على الاندلس من جهتي حدودهـا الاسلامية هو ذلك الأثر الذي خلفوه في لهجاتهـــا الدارجة في اول الامر لأن احتكاك هؤلاء الاسبان الدائم بالعرب وبالبربر المستعربين جعلهم يضطرون الى تعلم لغة الرومان Romane وهي الناتجة من اللهجة اللاتينية – الايبيرية ذلك انهـا وسيلة التعبير الوحيدة التي سلكتها آنئذٍ الطبقات الشعبية في المدن وجماعـات

الملتزمين الزراعيين المسيحيين او بمعنى بتعبير آخر المولدين الذين كانوا يعمرون الضياع الزراعية ومن ثم لأنه كان على اللغة الرومانية Romane أن تقدم للعربية الاسبانية العامية القسم الذي كان ينقصها من المفردات الحسية .

اننا نكاد نكون متأكدين في الوقت الحاضر بأن مسلمي اسبانيا كانوا في جميع عصور الاحتلال يعدون من بينهم نسبة مئوية هـامة نسبياً تتكلم لغتين معاً وتستعمل بلا تمييز العربية والرومانية بذات الاهمية في منازلها أم في الطريق العام . ولا جرم أن المسلمين الجدد كانوا يشكلون في هذه النسبة التي تتكلم لغتين ، الجمهرة الرئيسية ، غير ان العرب الاقحاح انفسهم ، يبدو انهم لم يأنفوا ، منذ ان كان نفوذ لغتهم الكتابية ما زال على حاله لم يعتوره شيء ، من استعمال الرومانية في احاديثهم الخاصة وذلك على كل مستويات المجتمع وحتى في صالونات منازل الخليفة نفسها (٤٨) . اما عن تغلغل الرومانية في العربية العامية في شبه الجزيرة فان لدينا عليه شهادة لا تدحض : انها مدونة في المعاجم العربية — اللاتينية او العربية القشتالية التي وضعت في اسبانيا في العصور الوسطى . وكذلك في الكلمات العديدة المتبقية من اصل روماني التي يمكن ان يحصيها في التعابير العربية في شمال مراكش والمدن الكبرى ذات التقليد الاسباني مثل فاس وتطوان وطنجة ، وهذا امر لا يقل اقناعاً عن سابقه . حتى لو لم نحسب حساباً للكلمات الرومانية التي تنتشر في كل صفحة من ديوان Guzman مثلا فانه يكفي ان نستعرض اعمدة القواميس التي عملت اسبانيا المسيحية على تأليفها ايفاءً لمآرب المبشرين عندما شرعت في ارجاع المقاطعات المستردة عن اسلامها ، لكي نقدر مدى الأثر الذي خلفته

اللغة الرومانية في تكوين اللهجات التي تكلمها المسلمون في شبه الجزيرة ، بعـــد ان نترك بالطبع التعابير الدينية المسيحية التي هي نفسها عربية صرفة مع ذلك في اكثرها : لم تفرض هذه اللغة على مسلمي شبه الجزيرة كلمات عديدة حلت محل كلماتهم الكلاسيكية المماثلة فحسب وانما فرضت ايضاً خواص في نوع تركيب الكلمات واشتقاقها وقـــد كثر استعمالها كالتعابير العربية الصرفة او كالتعابير التي تعربت منـذ زمن طويل : منهـــا ، اواخر اسماء الفاعل واسماء التصغير المطابقة لأواخر الكلمات الرومانية ella ero ؛ وهكذا فانه كان يقـــال في الاسباني – العربي fundakair من « fundac' fondoc » للدلالة على من يتولى ادارة النزل « الفندق » ؛ وكذلك Harella من (Hara) للدلالة على معنى : حي ، ربع ، محلة . يجب مع كل ذلك ان تلفت الانتبـاه الى ان الاعارات التي قدمتها العربية الاسبانية للرومانية في العصور الوسطى تبقى طفيفة اذا ما قارناها ، من الناحية العددية بتلك التي كانت آخذة في تقديمهـا في الوقت عينه الى العربية ، اللغة القشتالية وقد كانت عندئذ في طريقها الى الرسوخ .

ان دراسة هذه الاستعارات الاخيرة التي تنفح القشتالية والبرتغـالية والقطالونية وهي اللغات القومية الحالية في شبه الجزيرة عبيراً من العربية جد نفاذ ومدعاة للبحث ؛ هذه الدراسة لا تقدم لنا قيمة في فقه اللغة فحسب بل انها تكتسي طابع الاهمية الخاصة حالما نتوسع فيها لتشمل وقائع الحضارة التي بررت هـذه الاستعارات اللغوية ؛ فهي تقدم الدليل الضمني ، ولكن الذي لا جدال فيـه ، على الاثر العميق الذي مارسته الثقافة العربية الاندلسية على السكان المسيحيين في الكتلة الايبيرية بكاملها .

ان اللغة الاسبانية قد اشتقت من حيث جوهرها من اللهجات الايبيرية – اللاتينية التي كانت تشكل الرومانية – الاسبانية ؛ وبدون أن نذهب الى أبعد حدود التبسيط في طرح المسألة المعقدة لأصول هذه اللغة الاسبانية فاننا نستطيع على كل حال ان نتحقق من انها وجدت نفسها مضطرة ، طيلة مرحلة نموها ، وحتى القرن الحادي عشر على الاقل ، الى ان تأخذ من العربية كل مـــا كان ينقصها حتى ذلك الوقت للتعبير عن المفاهيم الجديدة وبخاصة في مضمار المؤسسات والحياة الخاصة . وهذا التحقق هو غني بالمعلومات بصورة فريدة .

واذا ألقينــا نظرة على اصطلاحات التنظيم المدني او العسكري لدى اسبانيا في العصور الوسطى او في العصر الحديث فاننا نكتشف فيهــا عدداً ضخماً من المفردات ذات الاصل العربي : ففي مراتب الجيش يطلق على رتبة الملازم حتى الآن Alferez وهي الكلمة العربية : الفـــارس ؛ والمقدمة هي في الاسبانية Atalaya وهي الكلمة العربية : الطليعة ، والمؤخرة هي Zaga وهي الكلمة العربية الساقة . وما زالت مفردات التحصين جميعها تقريباً هي نفسها التي كانت في العصر الاسلامي ؛ والى جانب ذلك فان العربية تحتل في تعابير البناء الفنية مكاناً كبيراً : فالمعماري يسمى Albanil من الكلمة العربية : البناء ؛ والعدسة Tabia من العربية : الطابية ويدعى الأجر Adobe من العربيـــة الطوب . ولا يقل أثر العربية وضوحاً في مؤسسات الدولة : فالضرائب تسمى : Alcabala وهي بالعربيـــة : غرامة وبالاسبانية Albaquia . ويطلق على شيخ الجماعـــة حتى الوقت الحاضر : Alcalde وهي من كلمـــة القاضي العربية . واستعمل مسيحيو اسبانيا من الكلمات التي تدل على المناصب المدنية كلمتي : صاحب المدينـــة وصاحب

الشرطة مع الاشارة ، في الوقت نفسه الى تعبير صاحب : Zavazorda , Zalmedina . وظل رئيس التجار (الشاه بندر) في شبه الجزيرة يدعى زمناً طويلاً Almotacin وهي عبارة مأخوذة مباشرة من الكلمة العربية : المحتسب (٤٩) .

لو أمعنا في هذه الاستقصاءات حتى تشمل مفردات الحياة اليومية لأصبحت اسهاباً طويلاً بل ومن المحتمل ان تصبح مملة لذلك سنقتصر هنا على الاشارة الى الأنواع المتعلقة بعناصر اللغة والتي ترتبط بها غالبية تلك الاستعارات . إلا أننا قبل ذلك نذكر بكلمات قليلة ، بنصيب اللغة العربية الكبير في مصادر أسماء المكان الراهنة . ان هذه اللغة تدل على ان اسماء عربية كانت قد خيمت Ont Recouvert احياناً كثيرة ، وبخاصة في جنوب شبه الجزيرة ، على التسميات الايبيرية القديمة ثم حذفتها . كذلك فان الاسماء العربية الاصل ايضاً تتغلب احياناً فيما يختص بأسماء الأنهار مثل الوادي الكبير Guadalquivir او الوادي الابيض Guadalaviar وأسماء الحصون مثل ، المدور Almodavar او حصن الحجر Iznajar وأسماء مدن حقيقية مثل مدينة سليم Medinaceli وقلعة ايوب Cal'at Ayub او الباسط Albacete .

وما زالت العربية باقية حتى الآن ، في لغة الريف الصميمية في مفردات بعض المصطلحات الزراعية ؛ وهي تظهر مرة اخرى ايضاً في مقاييس وموازين كل حقل قروي سواء أكان ذلك يختص بقياس السطح او الوزن او السعة . وفيما يتعلق بالزي فان الطرائق المتبعة ترجع بلا ريب الى العصر الفيزيقوطي وهي تتكشف عن اختلاف في التفاصيل عن الطرائق التي يمكن تفحصها في افريقيا الصغرى وبخاصة في مصر ؛ وما زالت ارض

الاقاليم الشرقية في اسبانيا بفضل تلك الطرائق في الري ، تحرث كما كان الامر في زمن المسلمين . وهذا لا يعني ان اصطلاحات الري ليست عربية ، فهي عربية ، ما عدا بعض الشواذ النادرة ، ابتداء من النوريا Naria وهي كلمة انتقلت من الاسبانية الى الافرنسية ولم تكن غير الكلمة العربية ناعورة . وكذلك هي الحال في المفردات الخاصة بصيد البحر لا سيما اذا كانت ممارسة هذا الصيد بواسطة الشباك او المضربة بالعربية Madragues بالفرنسية والاسبانية .

ان ما تقره معاجم علم النبات من الألفاظ العربية لا يقل نسبة عن ذلك : فأكثرية أسماء الفاكهة والازهار المزروعة تشهد حتى الآن في اسبانيا على استعارة مباشرة من اللغة العربية وهي بدورها كثيراً ما استعارتها من الفارسية وقد انتقل ايضاً ، عدد كبير من هذه الأسماء الى المفردات الافرنسية عبر البيرينية : مثل المشمش (برقوق) abricot ، الزعرور azerole الياسمين jasmin ، القطن coton ، الزعفران za'fran . وما زال الزيتون يدعى في الاسبانية aceituna والزيت aceite ويتساءل المرء فيما يتعلق بهذه الثمرة ومستخرجاتها ، لماذا لم تتغلب التعابير اللاتينية كما هو شأنها في اللغة الفرنسية ما دامت زراعة الزيتون في اسبانيا لم تكن من ابتكار العرب . وتدين اللغة الفرنسية ، بطريق الاسبانية ، الى العربية بعدد من اسماء الالوان المستقلة عن اسماء الازهار والفاكهة : ازرق azur ، اصهب alezan ، قرمزي carmaisie ، شقائقي écarlate ؛ ولهذه الكلمة الاخيرة مصير جد غريب ، بما أن الكلمة التي تقابلها في العربية الاسبانية قد جاءت على الارجح هي ايضاً من العبارة اللاتينية sigillatus .

ونحن نعلم ان اللون الشقائقي ، كان يعني في الاصل قماشاً من الحرير نُقِل فن صناعته الى اسبانيا من العراق في القرن التاسع . وتكاد اسماء الاقمشة في الاندلس الاسلامية تكون كلها على حد سواء اسماء آسيوية ، فأما تكون عربية صرفة او مشتقة من الفارسية او تكون بالتالي على علاقة بالمدن الصناعية في الشرق حيث ازدهرت صناعتها . وقد دخلت غالبية هذه الاسماء الى الاسبانية في العصور الوسطى . واذا كانت لم تبق منها حتى الآن إلا نسبة صغيرة فما ذلك إلا لأن الأذواق قد تغيرت ولأن الاقمشة الحريرية القيمة التي كانت ذات شهرة فائقة في اوروبا منذ عشرة قرون قد تبدلت موضتها منذ زمن طويل . وحينذاك كانت مفردات زينة الرأس واللباس والأحذية كلها عربية ايضاً على وجه التقريب : وليس على المرء حتى يتأكد من صحة ذلك إلا أن يقلب الوثائق المحفوظة عن ذلك العصر وبخاصة عقود الزواج . فقد كانت ثياب السيدات المسيحية تزدان ، من قبل اعادة الفتح ومن بعد على حد سواء ، بأنواع غنية من الملابس « العراقية » إذ كان يقال احياناً التعابير العربية ذاتها : algubas اي الجبة ، adorras اي الدرة ، وهي الجبة المزررة ، allihafes اي اللحاف ، ويكنى به معطف الفراء mobatanas اي الفراء المبطن وكان القماش المقصب البروكار يدعى alvexi والنسيج الحريري الموشى الطراز altiraz . وكذلك فان الجوهرات كانت تحمل ، في اسمائها ذاتها ، طابع التأثير العربي وأولية قرطبة او اشبيلية فيما يتعلق بالموضة ، ومثل هذا كان شأن السجاد ، والصناديق والأقداح ، وقد كانت تشكل في ذلك الوقت ، سواء في اسبانيا المسيحية أم في

اسبانيا المسلمة ، عماد الاثاث في البيوتات الارستقراطية والطبقات الموسرة [٥٠] .

* * *

يبدو انه لا داعي الى مزيد من التنبيه على الاهمية الاجتماعية المرتبطة بهذه الاستعارات جميعها ، وعلى أن جمعها وتصنيفها يشهدان هما ذاتهما على ما وراء فائدة هذه الظاهرة اللغوية . انها افضل جميع الوثائق التاريخية التي نملكها ، تبرز الاشعاع الحضاري الحقيقي الذي سلطته اسبانيا العربية على اسبانيا المسيحية والبلاد المجاورة ، وعلى نحو مشابه لإشعاع صقلية العربية ثم صقلية العربية – النورماندية ، سلطته على ايطاليا قبل عهد التريسنتو وانما بشكل اقوى وأبعد مدى . ان هذه الاستعارات هي اكثر الأدلة افصاحاً على سيادة الدولة الاموية الثقافية سيادة لا جدال فيها ، استطاعت ان تنعم بها في شمال شبه الجزيرة ، في هذه البلاد التي تقل جمالاً وخصباً وحظوة في توزع الثروات الطبيعية عن الاندلس الغنية . وبفضل هذه الاستعارات ، يستطيع الخيال ان يستثير ، دون ان يقع في شراك الوهم ، صورة سيدات برغس Burgas او ليون Leon وهن يمطرن سفراء البلاط على أثر عودتهم من بعض المهام الرسمية ، بأسئلتهن متلهفات على معرفة انواع الاقمشة والألوان الدارجة ، وأنسجة البروكار الثقيلة ، والمبتكرات من العاج وأحجار الكهرباء السوداء وقناني البلور المصقول ، التي كان تجار قرطبة يعرضونها في اسواقهم [٥١] .

لم يصل اشعاع الثقافة الاندلسية على الاراضي المسيحية اقصى مدى

اندفاعه في القرن العاشر لكي يأخذ بالتلاشي بعد ذلك . فقد امتد ، على العكس حتى القرن الخامس عشر باسطاً خيوطه على جميع اجزاء شبه الجزيرة . ولم يفعل ملوك قشتالة شيئاً وكذلك ملوك ارغونا دون شك ، ليردونه عن بلادهم الخاصة ؛ بل شجعوا هذا الاشعاع ايضاً وذلك بأن تبنوا هم انفسهم وفي احتفالات بلاطاتهم شتى المبتكرات المستقاة من الحضارة المجاورة مباشرة . وأن قيام بعض عواهل اسبان بضرب عملات ذات وجهين عربي وقشتالي هو امر كثير الوقوع [٥٢] ولقد ذكر ان السيد Cid لم يبق جامداً ، لم يتأثر بمفاتن الحضارة الاسلامية الاندلسية عندما كان ، في اواخر حياته ، يسيطر على فلانسيا لا ينازعه في السيادة عليها احد ؛ فقد استعرب الى درجة لا بأس بها في حياة الامارة والمدنية التي قضاها اخيراً ، على أثر الغزوات العديدة التي وجهها طوال حياته لصالح بعض الأمراء المسلمين او ضد هؤلاء الأمراء انفسهم على حد سواء [٥٣] ولا تقل حالة فرديناند الثالث غرابة عن ذلك وكذا حالة الفونس العالم . وقد ابدى مسلم من مسلمي قرطبة ، استقر في طليطلة قبل هذا التاريخ بزمن طويل ، عجبه من مقابلة جرت له مع الكونت سانشو القشتالي المتوفي عام ١٠١٧ وهو يروي ذلك للمؤرخ ابن حيان : « عندما وصلنا الى خيمته وجدناه جالساً على دكة منجدة بالفرش تنجيداً كاملاً ، مرتدياً على الطريقة الاسلامية ؛ كان حاسر الرأس فقط [٥٤] فكل اولئك الابطال الذين لم يعرفوا الكلل في اعادة فتح اسبانيا ، الذين كانوا يقاتلون من اجل وطنهم وعقيدتهم فاننا نراهم لا يقلون عن غيرهم اعجاباً بحضارة اعدائهم السياسيين التقليديين ؛ فقد كانوا يعترفون بكل ما كانت بلادهم ذاتها تدين به الى ثقافة هؤلاء الاجانب ، الذين كانوا يبتغون اجلاءهم عن ارضهم .

حتى اننا فيما بعد نرى شارل كان الكبير يتمرد تمرداً بدون جدوى بالطبع — في وجه مشاريع تحويل جامع قرطبة المدهش الى كاتدرائية وقد كان يأمل في ان يراه سالماً كما هو .

على الرغم من ان فرنسا كانت في العصور الوسطى في عزلة عميقة بسبب من وضعها الجغرافي ، إلا ان هذا مع ذلك لم يحل دون معاناتها من بعض النواحي ، عاقبة تلك المؤثرات التي أثرتها حضارة الاسلام في الاندلس على الممالك المسيحية في شمال اسبانيا . ذلك ان الحملة الصليبية الافرنسية التي استهدفت عام ٤٥٦ هـ (١٠٦٤ م) المدنية الاسلامية الارغوانية برباسترو Barbastro ، كانت تضم في صفوفها ، فرساناً ، بقيادة امير نورماندي ، من اغلب مقاطعات المملكة . فلما فاجأت المدينة وانتهت من نهبها ، عادت عبر جبال البيرينيه ومعها اعداد هائلة من الأسرى المسلمين . وليس ما يمنع هنا من الظن بأن هؤلاء الأسرى قد عملوا في المدن التي سيقوا اليها قبل ان يذوبوا في جمهور السكان ، على نشر المعرفة ، حولهم ببعض الفنون والاساليب التي لم تكن قد خطرت ببال اسيادهم بعد . وقد رأينا بأن غالبية الكلمات المشتقة من العربية في اللغة الافرنسية قد دخلت اليها عن طريق الاسبانية . ومن المحتمل ان يكون هذا هو شأن كثير من المؤثرات التي قدرت فرنسا على تقبلها من الاسلام قبل زمن الحملات الصليبية الى الشرق او حتى أثناء هذه الحملات . ولم نحدد حتى الآن تحديداً كافياً دور الاستعارات المباشرة او غير المباشرة التي كانت فرنسا العصور الوسطى تدين بها للاندلس الاسلامية . وهي استعارات نكتشف أثرها ، حتى بدون ان نتكلم عن الحج الشهير الى كاتدرائية سانتياغو Saint - Jacques - de - Compostelle ابتداء من القرن الحادي عشر وذلك عندما اخذ ذهاب

رهبان الكلونيزيين Clunisiens والسترسيين Cisterciens وإيابهم المتواتر بين اديرتهم وبين طليطلة يزيد ايضاً في تسهيل التبادل الثقافي بين البلدين .

* * *

لم تكن المؤثرات الفنية ، بين هذه المؤثرات المختلفة التي تلقتها اسبانيا وفرنسا في ذلك العصر ، أقلها جدارة بالاعتبار ، ولقد أقام على وجودها الدليل ، اليوم ، اميل مال Emile Mâle في شرح نيّر نتيجة دراسات مستفيضة تولاها عن كل ناحية من نواحي جبال البيرينيه . ونتج عن هذه التحريات ان الفن الروماني في العصر الوسيط الأعلى مدين لفن ما قبل القرن الثاني عشر في اسبانيا الاسلامية بسلسلة كاملة من الاستعارات تظهر مواضيع الزخرفة في داخل الابنية وخارجها اكثر مما تظهر التنسيق في فن البناء بمعناه الصحيح . وهذا التأثير للفن الاسباني — المغربي لم يكن — بلا شك — هو الوحيد الذي لعب دوراً في الفن المسيحي في رومانيا الغربية قبل تفتح الاسلوب القوطي او الأوجيفالي Ogival ؛ وقد رافقته مجاوبات لومباردية وفرنجية وحتى شرقية وبصورة خاصة في كاتالونيا . ولم يقلل ذلك من حدته ولا من قيمته .

لقد تطورت الفنون الوسيطة ، التي كانت تسهل في اغلب الاحيان تلك العلاقات على ارض شبه الجزيرة نفسها : فهي بحسب الامكنة ، والعصور واصل اصحاب الآثار يطلق تارة اسم الفن المغربي وطوراً الفن الموديجر Modéjar . وأقدمها هو الفن المغربي وقد ظهر في اسبانيا المسيحية منذ بداية القرن التاسع عشر لكي يقيم فيها بصورة نهائية تقريباً ، مكان

ذلـك الفن ، فناً اكثر عراقة في القديم ، يسمى احياناً : الفن الاستوري Asturien وهو فن مشبـع كله بالتراث الفيزيقوطي الذي تأثر قبل ذلك تأثراً لا بأس به في المشرق . لقد درس السيد قوميز مورينو M. Comez Moreno [٥٥] تـلك الكنـائس التي أقامها النصارى الخاضعين لحكم عرب المغرب ، في قشتالة وليون وغاليسيا ، دراسة مستفيضة في عصري الامارة والخلافة الامويتين في الاندلس فوجد انهـــا تتميز بصورة دائمة بالعقود (القباب) التي ترتفع فوق أقواس على شكل حذوة الحصان .

فعن طريق فن المسيحيين الخاضعين لحكم عرب المغرب او عن طريق فن قرطبة في عصر الخلافة مباشرة اقتبس الفن الروماني بلا ريب جزئيات عديدة لتزيين كنائس هذا الفن : فان استعمال الـ Modillon وهي طريقة في تزيين (الاعمدة) نحتاً والقوس المتجاوز والقبة المضلعة يظهر جوهر هذه الذكريات وقد عكف السيد ايلي لامبيرت ، في دراسة له ، على تحديد تلك العلاقات فوجد نفسه مساقاً الى تقرير الحقيقة التاليـــة [٥٦] وهي « ان مهندسي البناء والمزخرفين المسيحيين ، في فرنسا واسبانيا ، قـــد اقتبسوا بالتأكيد في عصر الفن الروماني ، عـــدداً وافراً من خيرة اشكال فن الاسلام الاسباني — المغربي ؛ إلا انهم كانوا دائماً يقلدون تلك الاشكال في اوسع مجـال من الحرية أي بمعنى آخر كانوا يبدلون فيها بروحية تختلف تمام الاختلاف عن الروحية التي ألهمت في ابداع نماذجها » .

وقد تنطبق هذه الملاحظة نفسها على فن البناء غير الديني ، وهو فن لم يدرس بعد إلا قليلا على الرغم من وجود عدد من الآثار المدنيـــة

الجليلة والصنائع العسكرية والاعمال ذات النفع العـام كالجسور والأقنيـة المائية المعلقة ، التي يرجع تاريخ انشائها في اسبانيا الى العصور الوسطى . ويظهر تأثير الاسلام في اسبانيا كذلك ، بصورة لا تقل عمقاً ؛ في تطور الفنون الصغرى ، سواء أكان ذلك في صنع العاج كما يمكن ان يشاهد على الصناديق الاسلامية الصغيرة ، او من صنع الرعـايا المسيحيين في مصانع كونكا Cuenca وقشتالة ام في المصنوعات الذهبية والزجاجية والخزفية ام في التطريز . وقـــد استمرت مراكز صناعة الاواني المذهبة او ذات الشهرة المعدنية ، تعمل في ملاقا ومنيزيا بالقرب من فالانسيا حتى الى ما بعد اعادة الفتح . وبعد اعادة الفتح كذلك بقي المرء يرى معامل الاسلحة في طليطلة وصناعة الجلود في قرطبة آخـــذة في الازدهار ، وها هنا مصدر اشتقاق كلمة كندرجي في اللغـة الفرنسية Cordonnier ، كما هو معروف . ان الكؤوس المقدسة والصلبان وتيجان قشتالة الملكية وملابس الابهة الرهبانية التي كان كثير من خزائن الاسبان المقدسة Cacristies ما يزال يحتفظ بهـا ايضاً حتى وقت قريب تزدان في اغلب الاحيـان بنقوش تمت بصلة مباشرة للفن الاسباني – المغربي وأحياناً تزدان بنقوش عربية حيث يمكننا بعد التدقيق ان نتبين آيات قرآنية محرفة بسبب من تتابع الناسخين .

* * *

ومن الممكن ايضاً اثبات هذا التداخل بين الاسلام والمسيحية في الغرب الوسيط ، على نحو اكثر جلاء ، في مجال الفكر . وسنرى كذلك ان الثقافة العربية الاندلسية هنا لم يكن لها اقل دور تقوم به . ولكن قبل هـذا

يجب البحث الى أي حد استطاعت هذه الثقافة نفسها ان تجني وتستكمل طوال عصور ازدهارها ناحية ما من الميراث الذي خلفته لاوربا الحضارة اليونانية – الرومانية عن طريق الغزوات الألمانية . وعلينا ألا نُخفي عن بالنا بأن المسألة التي يصعب حلها تكمن ها هنا . واذا خيل الينا وجود تأثير ما فاننا سوف لا نستطيع ايضاً تقديم الدليل المادي الذي لا يقبل الجدل . وليس ذلك سوى اختلاط هذا الادب الاسباني الذي كنا نراه خاصة حتى ذلك الوقت خاضعاً لسلطة المشرق الاسلامي ، اختلاطاً طويلاً ينتهي به الى الالمام الدقيق بضرب من التخصص الفكري ومن المحتمل ألا يكون هذا التخصص قد حدث كظاهرة عفوية فحسب . فان صفحات من كتاب النثر ومقاطع من شعر الشعراء تفضح في معرض هذا الكلام نبرة خاصة لم نكن قد ألفناها في دراستنا للأدب العربي في المشرق . والقول : « بأن الادب الاسباني – الاسلامي في القرن الحادي عشر يتبدى لنا في شعره كأنه خليط عجيب من القديم والحديث ، من الكلاسيكية والرومنطيقية ، من الشهوانية والصوفية وبالتالي من الوثنية والمسيحية (٥٧) » هو قول يذهب في المجازفة الى حد بعيد مع ذلك بالقياس الى ما بلغه في نهاية المطاف » .

وهنالك حالة ، وان كانت اجدر بحالة عالم اللاهوت ، الفيلسوف منها بالكاتب الناشر ، إلا انها نموذجية بين جميع الحالات . انها حالة ابن حزم الشهير الذي تردد اسمه من قبل مراراً عديدة فيا تقدم . هذه الشخصية التي جاءت الى الوجود تماماً في ختام القرن العاشر هي النموذج الكامل للعربي الاندلسي ، الارستقراطي ، العالم ، الذي يمت لأواخر عصر الخلافة . نشأ والده عصامياً وقد تخلى عن منزله بجوار مدينة هويلفه Huelva

ليؤم قرطبة وينخرط في سلك الادارة الاموية ويظل يتنقل في مراتبها الى ان ينتهي وزيراً للمنصور . فقد نشأ ابن حزم في هذا الوسط المتألق بذوي المناصب الرفيعة في البلاط ، وشرع في تثقيف نفسه تثقيفاً كلاسيكياً ثم أكمله . وبعد ذلك اندفع في معترك السياسة ، وسط العاصفة التي ستطيح ببناء الخلافة ؛ وبقي وفياً للأمراء الأمويين الذين قضوا نحبهم واحداً تلو الآخر على نحو غامض . وبعد قليل عزف عن الاضطلاع بأدنى دور فعال في الدولة وما جاء عام ١٠٢٤ – وكان قد بلغ تمام الثلاثين من عمره – حتى انصرف نهائياً الى الحيـاة العلمية والجدل لينافح ، بضراوة لم تعرف الكلل حتى نهاية حياته ، اتجاهات الفقهاء المالكيين الجامدة . وهكذا اخذ يعد عندئذ آثاره الرئيسية في الفلسفة والحقوق والفقه ويأتي في مقدمتها كتابه في تاريخ مختلف المذاهب الدينية في الاسلام ، كتـاب الفصال في الملل والنحل : فهو نقد عنيف لمذاهب بعض من بني دينه ، كالأشعريين كما انه لم يوفر فيه ايضاً عقائد الاديان المنزلة الاخرى مثل اليهودية والنصرانية . وفي جميع هذه الفروع كان انتاجه خصباً جداً ولكنه انتاج النضج وقد الف ، وهو ما يزال يافعاً ، بحثاً صغيراً لا تقدر قيمته بثمن هو « طوق الحمامة في الالفة والالاف » وهو من نواح عـدة يعتبر أكثر الآثار تمييزاً وأصدقها تصويراً للثقافة العربية الاندلسية .

يتخلل هذا الأثر ، وهو من ثمرات الشباب ، ذكريات المؤلف في فترة المراهقة العابثة . إلا أنـه يبدو كأنما هو تحليل حقيقي للهوى المدله من خلال اكثر ظواهره تواتراً ونتائجه الطارئه كالافتراق والوحـدة وسلوان المحبوب . والذي لفت النظر الى وجوده هو دوزي ثم جاء بتروف وآسين ونيكل فدرسوه بأناة واحـداً بعد الآخر إلا انهم توصلوا الى نتائج غير

متفقة في اغلب الاحيان . فان السيد ميكيل آسين ، بصورة خاصة (٥٨) ينقض نقضاً تاماً رأي دوزي الذي يرى في هذا الأثر لابن حزم حصيلة اصل وتربية غير عربية قبل كل شيء . فانه في نظر هذا المؤرخ الشهادة على خصائص وراثية اسبانية وبدون شك مسيحية . ولكن عالم مدريد الاكاديمي لم يتهيب ، تساندة البراهين ، من ان ينكر هذا الزعم حول الصفة الاسبانية الخاصة لـ « طوق الحمامة » ؛ ولا شك في انه على حق . فالحب الافلاطوني كما حلله ابن حزم على ان فيه من الرقة بقدر ما فيه من الكياسة من المحتمل ان يكون قد ساهم ، من مقره في اسبانيا ، عن قرب او عن بعد في تطور الحب « المؤانس » Courtois الذي سيلي ذلك في اوربا الغربية . ولكن لم يكن هو ذاته من مبتكرات الاندلس . فلقد كانت بقية العالم الاسلامي تعرفه منذ العصر الذي اشتهر فيه المشرق ، على الأقل ، بوجود تيار من الأخلاقية الاجتماعية وبوجود الميل الى التصوف وممارسة حياة النسك . وان اكثر الحوادث الواردة في كتيب ابن حزم ، تعبيراً ، تجد نظائر لها في نفس الزمن ومن قبل ذلك ايضاً في الآداب العربية في المشرق .

ويجب ، على كل حال ، ان نضيف بأن من بين تلك الحوادث ما عرف ابن حزم ، وهو الفنان فيما يكتب ، كيف يضفي عليه جواً حزيناً ، اخاذاً حقاً . وفي بحثه هذا عن الحب صفحة كثيراً ما ردد ذكرها لأنها تبلغ حداً رفيعاً في تعيين نوع الحياة في قرطبة في القرن الحادي عشر وتهيء للخيال دونما شطط ان يستعيد كنف ذلك المجتمع المرهف الذي كانت النعومة تتغلب فيه ، على نحو طبيعي ، على خشونة اللذات الجسدية . تلك هي القصة الممتعة عن الجارية الشابة : خلوة وقد دنا منها ذات يوم ،

الشاعر القرطبي ، الرمادي ، في حديقة قرب الوادي الكبير ، وبعد مجاذبة قصيرة في الحديث ارادت فيه المجهولة ذكر اسمها للرجل الانيق الذي يخاطبها ، ثم نسمعها وهي تتخلص بمهارة وبرقة لا نظير لها ، من الجواب على طلبه موعداً للقاء . فمن الممكن ألا نعثر في جميع الانتاج الاسباني على قصيدة قد بلغت في الرقة الانسانية شأن بعض جمل تلك الصفحة القصيرة [٥٩] واننا لنشوهها اذا اعتزمنا ترجمتها ، وهي صفحة جديرة بأن يفسح لها مكان في جميع المنتخبات من بين امهات الآثار في اللغة العربية .

* * *

ما من شيء يُبيح الأمل في اكتشاف الانتاج الفكري الوسيط ، المجهول حتى الآن والذي سيمكنه ان يُظهر امارات تأثير آداب اسبانيا المسيحية على اكثر الآثار شهرة في العصر الأندلسي الكلاسيكي . وسوف لا يأخذ هذا التأثير بالظهور حقاً إلا في وقت متأخر جداً . فانه يظهر في العصور الاخيرة من تاريخ الاسلام الاسباني عندما تصبح التبادلات الثقافية ايضاً تجد مزيداً من التسهيلات بسبب من تقدم حركة اعادة الفتح في الاستيلاء . إلا انه يكون من عدم الانصاف ، ان لا نشر الى الدور الذي قامت به الجماعات اليهودية في تلك العلاقات في شبه الجزيرة سواء فيما يتعلق منها بهذا العصر ام بالعصر الذي سبقه . ان ذكر من مثلهم في ذلك يثبت بأنه غير منفصل عن دراسة ، الحضارة الاسبانية ـ الاسلامية حتى وان كانت موجزة ، هذه الحضارة التي اسهم فيها أهل الذمة وكانوا من أبطالها احياناً .

كانت توجد دوماً ، ابان العصور الوسطى طائفة من السكان اليهود ، عددها لا بأس به تقطن مدن اسبانيا الاسلامية ومدنها المسيحية على حد سواء وكانت أحوالها مزدهرة وبخاصة في ارض الاسلام ، على شيء كبير من التنظيم ، تتوارث حب الدرس (٦٠) وكان العلماء الذين أكسبوها هذه الشهرة ، سيشكلون جمهرة غفيرة : فهم ، في الغالب ، اصحاب التلمود الذين يسلكون طرقاً مشابهة للطرق التي يسلكها الفقهاء المسلمون في البلاد ، وأطباء كذلك وتراجمة عرفوا بخاصة بالقيام بدور الترجمة بسبب من اتقانهم ، في ذات الوقت ، للعبرية والعربية والقشتالية وأحياناً ايضاً للاتينية واليونانية . وقد استمر عدد كبير من بين هؤلاء العلماء اليهود على شهرته مثل هاسداي بن شابروت الذي صار سفيراً ووزيراً للخليفة عبد الرحمن الثالث وسليمان من غابيرول ، افيسيبرون Avicebron العصور الوسطى ، الذي جدد الشعر العبراني وألف في العربية بحثاً فلسفياً مشبعاً كله بالنظرية الافلاطونية — الحديثة ، بعنوان « ينبوع الحياة » وما من احد يجهل اسم ابن ميمون Maimonide : فهو ايضاً استعمل اللغة العربية ليضع كتابه « دليل التائهين » وقد حاول فيه ، بعد ابن حزم وابن رشد وقبل القديس توما الاكويني ، ان يوفق بين الايمان والعقل . اما التراجمة فانهم ، وان كانت شهرتهم قد خف تألقها ؛ فلربما ساهموا ايضاً مساهمة اكثر فعالية في الجهد الفكري الاسباني الكبير ، في آخر فترة من فترات العصور الوسطى . وقد قدم اليهود الى ملك قشتالة العالم الفونس العاشر اغلب عمال الفريق الذي شكله في القرن الثالث عشر هذا الأمير الاسباني المستنير الذي يبدو ان ما من مظهر من مظاهر التأمل الفكري إلا وكان يثير اهتمامه ؛ وكان ذلك قبل ان ينتقل مركز الثقافة العبرية من جنوب شبه الجزيرة ووسطها الى قاطالونيا وبروفانسيا .

ففي العصر الذي كان يحكم فيه هذا الملك اصبح جهد حركة اعادة الفتح Reconquête يوشك تقريباً ان يشرف على النهاية ولكن اسبانيا التي أعيد فتحها ما تزال مستعربة الى حد بعيد . وأخذ الفونس العاشر يتشكك بالفائدة التي يجنيها من الحالة الراهنة ، التي يجب ان تتبدل بالضرورة على مر السنين . لذلك فانه عمل على القيام ، تحت رعايته ، بمشروع ضخم للترجمة والاقتباس الى اللغة القشتالية من تركة الثقافة العربية التي اورثتها للبلاد . وبثقة تعاون في هذا العمل مسلمون ومسيحيون ويهود بصورة خاصة . وكان ذلك العصر هو الزمن الذي احدث فيه هذا الامير نفسه معهد الدراسات اللاتينية – العربية وقد اسس في عام ١٢٥٤ في اشبيلية ونال حماية البابا ببراءة موقعة عام ١٢٦٠ من اسكندر الرابع . وعمل فريق التراجمة بصورة خاصة في طليطلة التي كانت قد اصبحت مسيحية منذ قرابة قرنين . واندفع في تدوين ضخم للوقائع العامة من وجهة نظر تاريخية ، تحت رقابة الفونس العاشر المباشرة ؛ وقد استخدمت في ذلك المصادر العربية القديمة ؛ ومن الناحية الادبية فقد باشر بمؤلفات ذات شهرة شعبية مثل التاريخ الشرقي لكليلة ودمنة . وعلى كل ما عداه كان في نطاق العلوم الرياضية والطب وبصورة خاصة في علم الفلك ان « حريات المعرفة » Libras del saber الشهيرة هي اكثر الامور التي ساهمت في صيت هذه المدرسة التي يشار اليها احياناً باسم حاميها : المدرسة الالفونسية .

وكان لمبادهة الفونس العالم انها استعجلت ايضاً مسعى سبق ان بوشر به منذ زمن طويل ، يدرك كل مداه عندما يدرس تأثير الثقافة العربية الاندلسية على مؤلفات اوربا الغربية التي تلي ذلك الزمن وبخاصة على

التآليف الفلسفية . وسيكون من الاسهاب الطويل ان نتتبع علائم هذا التأثير الخاص الذي اشتهر فيما اطلق عليه اسم « الصوفية المسيحية » في واحد مثل رامون لول Ramon Lull ، وهو على ما يظهر تتلمذ مباشرة على النظرية الصوفية لمحيي الدين بن العربي الاسباني . ولم يعد احد يجهل ، من جهة اخرى ان مسألة هذا التأثير قد كانت موضع مناقشات حامية الوطيس في هذه السنوات الأخيرة بعد ان قدم السيد ميكيل آسين Miguel Asin الى اهل العلم نتيجة ملاحظاته الثقافية المتعلقة بعلم أثر الانسان المسلم eschatologie في الكوميديا الإلهية Comédie Divine (٦١).

ان مدرسة كاملة من الرومانسيين de romanistes ، وعلى رأسها السيد ر . منيندس R.Mnéndez تعارض اليوم النظرية البروفنسالية Provençaliste عن منابع شعر التروبادور : انها في الواقع تربط هذه المنابع بالشعر العربي العامي في اسبانيا وعلى الخصوص بالزجل . فالقضية معقدة ، عسيرة الحل حتى لو أننا جعلنا على خط متواز استعمال المقطع الايقاعي الموجود في كل من هذين النوعين من الشعر ، المتجاورين في الظاهر ، ثم فسرنا اسقاط اللازمة في مؤلفات التروبادور الاكويتانين بعدم فائدتها في شعر البلاط حيث لا جدوى من ترداد الجوقة لها . فان هذه المسألة ستستنفد ايضاً من جميع الوجوه حبراً غزيراً . اما في الوقت الحاضر فمن الجائز على الأكثر ان نسوق قيام علاقات على مر الزمن بلا ريب بين هذه الجهة وتلك . فما هي الكيفيات الخاصة لهذا التبادل ؟ ان محاولة تحديد ذلك ما زالت ضرباً من المقامرة . اما فيما يتعلق بمجموعة الأناشيد العامية الاسبانية المغربية ، الشهيرة باسم رومانسيرو Romancero وهي التي كانت بمملكة غرناطة في القرن الخامس عشر ،

والحمراء على وجه الخصوص مسرحاً لها ، فانه مـا من شيء يبرهن على انها كانت مجرد نقل الى ان نستطيع العثور على ما يقابلها . تلك هي ، مع ذلك آخر انعكاس من الثقافة الاندلسية سيعمل على اطـالة وميضها من خلال هـذه القصائد بينما كان الاسلام يهاجر من شبه الجزيرة : ولا يختلف مصدر الالهام فيها عن مصادره في الاشعار الزجلية التي ما زالت تصاغ حتى الآن في فاس او في الرباط حيث احتفظ الذين يحترفون الغناء بجوهر الحكايات العربية الغرناطية سالماً منـذ اواخر العصور الوسطى ، حتى بدون ان يدركوا احياناً معاني كلماتها .

* * *

لنضع حداً لهذه الاعتبارات ، فقد يجدها البعض صورية الى حـد بعيد تعبر عن علاقات الأمور ووظائفها ؛ إلا أنه ما من احد يستطيع ان يعيب عليها انها لم تكن موضوعية على نحو دقيق . وهـذا هو ولا شك اهم ما ينبغي في نظرة عامة حيث حاولنا ان نضع الحضارة العربية الاسبانية في موضعها الحقيقي ، في اطـار الحضارة المشتركة بين جميع ارض الاسلام بقدر مـا حاولنا ذلك في اطار الحضارة الوسطية لأوروبا الغربية . ونعتقد اننا برهنا بمـا يكفي من الدقة كيف ان الثقافة الاندلسية اخذت من جهـة تشعر شيئاً فشيئاً بنعتها وشخصيتها وان كانت بحسب النسب تتعلق بحضارة المشرق التي تلهمها . ثم عرفت من جهة اخرى ، في زمن هو اقرب الينا ، كيف تفرض نفسها الى حد كاف ، خارج الحدود الاسلامية فتبعث في هذه الأمكنة بعض المنظمات والهيئات الاجتماعية شبيهة بما عندها ، ولكي تؤثر على نحو خاص على تطور الفكر

والمعرفة الاوربية في عصور ما قبل النهضة في ظروف ليس من اليسر ابداً أن نحددها .

إلا أن هناك سؤالاً يطرح نفسه ايضاً لا معدى لنا منه . فما هو نصيب حضارة عرب اسبانيا ، الذي يظهر من خلال ذلك في الارث الذي حصلت عليه شبه الجزيرة الايبيرية من ماضيها السحيق . اما ان تكون الاندلس قد اسلمت الى شبه الجزيرة تركة ، فهذا امر لا يثير بالتأكيد اي شك ، فهل كانت مفيدة في مجملها ام شؤماً ؟ ذلك هو كما نقدر الموضوع الذي يهيمن منذ سنوات على معركة تجري بحميا واحياناً حتى بتهجم ، وليست تحتدم فقط من جانب واحد من جبال البيرينيه واننا لا نلج هذا الموضوع هنا إلا حذرين ودون تحزب . لا سيما في فترة ، كانت فيها اسبانيا تجتاز اكثر الساعات فاجعة في تاريخها القومي كله إذ أن بربر افريقيا عادوا مرة ثانية الى عبور المضيق اليها ، دفاعاً مع احد المعسكرين ضد الآخر ، عن حركة صوفية اجتماعية ليس ما يمنعنا من التخمين بأنها من المحتمل ألا تكترث لهم .

ويجب ان نبادر في الحال الى استبعاد بعض الإثباتات لأنها نفسها تستحق ذلك اذ انها لا تعتمد فيما تزعم على مستندات خالية الغرض دائماً لا سيما وان لهجتها الخشنة ، الحاقدة ، «ما» ، تجعلها في محل شبهة الى حد بعيد منذ البداية . وهي تصدر من ناحية اخرى عن كتّاب ليسوا من الاسبان كما انهم ليسوا مؤرخين او مختصين باسبانيا وأكثر من هذا كله فانهم غير مختصين بالاسلام . فانهم يلقون على المسلمين تبعة « اجداب » اسبانيا و « اخلائها » من السكان وانهم جعلوها « صحراء مثل افريقيا الشمالية » ويقسم المرء لدى قراءته ما كتبوا على انهم لم يسمعوا أبداً

خرير نوافير الماء في قصر الحمراء ولم يستنشقوا ابداً العبير الرقيق ، المعطر في ألكـزّار اشبيلية . وهم يرون ، وانا انقل هنا حرفياً رأيهم ، بأنه « أقل ما يمكن ان يقال هو ان السيطرة الاسلامية كانت مصاباً جسيماً حـل على اسبانيا » .

فما من احد مثقف في أسبانيا اليوم يجرؤ على ان يكون حكماً مفرطاً في المبالغة الى هذا الحد . ولئن كانت قد حدثت ردة فعل في شبه الجزيرة الايبيرية ضد اتجـاه ساذج يوازن في البلاد نفسها في العصور الوسطى بين اسبانيا مسلمة ، مثقفة وبين اسبانيا مسيحية كانت قابعـة في الهمجية ، فذلك امر طبيعي جداً ومعقول ايضاً . ولكن اسبانيا – على الأقـل اسبانيا قبل عام ١٩٣٦ – قد عرفت ان تعيد الى اسلام الاندلس ألقابه في مراتب الشرف وادعت وهي مرفوعة الرأس علناً بأنـه يعتبر زهرة في تراثها التاريخي والفكري . ولم تأنف من الاحتفـال بزهو بمرور الف عام على تأسيس الخلافة الاسلامية في قرطبة ، ومن احياء ذكرى العالم اليهودي الاسباني ابن ميمون بعد ذلك بعدة سنوات . وحرصت ، بدون تصنع ، على ألا تقع في التفخيم والمبالغة ، وعلى ألا تهمل لحساب مفاخرها الاسلامية ، جميع مفاخرها القومية الأخرى الناجمة عن المسيحية وعن أرضها القاسية . وبدون ان تحكم بشراسة ، فانها احياناً أيضاً قد طفقت تفكر بما يعترضها من تركة الاسلام ، وهي ما تزال حية ، التي حولها اليها . وما من أحد يستطيع الامتناع من اقتفاء أثرها على هذا الصعيد .

ان حركة اعادة الفتح التي شرع بها باسم مثالية سياسية ودينية قد هيمنت من عل على كل تاريخ شبه الجزيرة الوسيط . انه عمل أناة بطيئة وارادة مصممة ، صلبة وهو بمثابرتـه وبالجهـد الساحق الذي اقتضاه مدة

ثمانية قرون ، يستدعي الاعجاب والاحترام . واذا كان هذا العمل الاساس عندئذ لم يبعد اسبانيا ابداً عن القيام بجميع مهامها الأخرى فانه مع تلك الحركة عمل على تأخيرها عن انجازها . وقد رسمت تلك الحركة للممالك المسيحية الايبيرية المختلفة القيام بمهمة الحراس الأماميين اليقظين دوماً . وأوضحت لها بالتالي ان هذا الجهد لن يكلل بالنجاح إلا بثمن وحدة سياسية تجمع في ظل تاج واحد ارغونا وقشتالة . وقد حفظت في نفوس أبطالها في جميع العصور ، روحاً محاربة ، عنيفة أحياناً ، وحساسية دينية متوحشة . وقد رأت الكتلة الايبيرية نفسها ، طوال متابعتها لإعادة الفتح مشطورة الى شطرين ، وقد توقفت دفعة واحدة ، نهضة اقتصادية متكاملة بمجملها ، مطلقة العنان لقيام دولتين اسبانيتين ، تمور كل واحدة منها بطفرات داخلية إلا انها لم تتجاهل احداهما الأخرى عن تعمُّد .

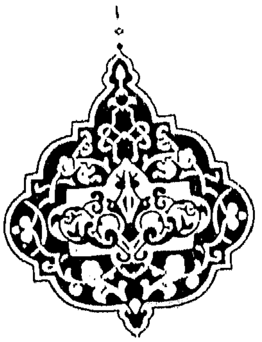
ومن الممكن ان اسبانيا المسيحية لم تشعر عندما تمت حركة اعادة الفتح ، شعوراً على مقدار كاف من الوضوح بما اصابها بالقياس الى امم اوروبا الأخرى من التأخر والتزعزع ، بسبب من كفاحها طيلة اجيال في سبيل وحدتها القومية . وعندما اخذتها النشوة قليلاً ، ربما نتيجة لسلسلة من الفرص المفيدة مثل : اكتشاف اميركا واستغلالها ، تفوق عسكري بفضل تدرب طويل على فن الحرب واتحادها مع المانيا عندما اصبح احد آل الهابسبورغ وريثاً للملوك — الكاثوليك — فانها قد اسلست قيادها للانسياق نحو سياسة خارجية متهورة فلم تخرج منها إلا وهي منهكة القوى .

ولكن هل يعزى حقاً هذا الاستنزاف لقواها قبل الأوان الى الاسلام الاسباني ؟ نعم بلا شك في الحدود التي فرض فيها الاسلام على اسبانيا

سبيلا تسلكه ولا تستطيع الحياد عنه حتى القرن الخامس عشر فاستنضب كل فاعليتها وجميع طاقاتها . ولكن ، مع ذلك كلا على وجه التأكيد في الحدود التي ساعدها فيها الاسلام وذلك بأن نفخ فيها ثقافة متلائمة مع عبقريتها الخاصة وبأن تتبّع السبل التي سبق لأمم اوربا الغربية الأخرى أن التزمت السير عليها فقادتها مثل هذه الأمم نحو عصر النهضة .

كان العالم السياسي الاسباني السيد Cl. Sanchez - Albornoz رئيساً لجامعة مدريد فسفيراً لبلاده ثم وزيراً لشؤونها الخارجية ، إلا أنه كان ويبقى ، قبل كل شيء ، مؤرخاً على مستوى عالٍ . ولقد تأمل طويلاً في مأساة اسبانيا الحديثة الاخلاقية ، هذه المأساة التي استطالت وما تزال تستطيل ايضاً . وعندما يتساءل عما اذا كان وطنه ، الذي جعلته مهمته في أن يكون يقظاً ضد الاسلام ، يضطرب في مصيره اضطراباً عميقاً ، ما يزال اليوم كذلك « مصاباً بنقص اصلي » ؛ يصرخ بكل جوارحه والحق كله معه . فهو يأمل فقط في أن يرى اسبانيا « تنفض غبار ماض ما يزال يثقل روحها » . إلا أنه يعرف ايضاً ، اكثر من أي شخص آخر ، كيف اشرق الاسلام على هذه البلاد وماذا كان تراثه الرئيسي فيها : تأثير عميق على الفكر الاسباني لا يمكن انكاره . وختاماً لنترك له الكلام ونردد معه كلمة ، كلمة هذا الاعتراف المؤثر ، العفوي (٦٤) « المسألة اليوم ليست مسألة ظلمات العصور الوسطى » ولكن علينا أن نرى مقابل اوربا التي تنمو في التعاسة والانحطاط ، حضارة اسبانيا المسلمة ، الرائعة . فان اساتذة الدراسات العربية (٦٥) يفتحون لنا كل مرة آفاقاً جديدة عن مدى تألق هذه الثقافة الاسبانية

المغربية وعمقها . فقد ادعوا ان لها مقاماً حاسماً في تكوين الفلسفة والعلم والشعر وجميع ثقافة اوربا المسيحية . وبرهنوا على ان تأثيرها قد بلغ حتى ذرى الفكر الوسيط . بلغ القديس توماس ودانتي . كثيرون ولا شك ، في كل ناحية من ناحيتي جبال البيرينيه والبحر الابيض المتوسط الذين ينفرون حتى الآن من الإقرار لها بهذا التفوق وذلك الدور الموجه . ومع ذلك فان براهين وافية للغاية تؤكد ذلك منذ الآن ومن يوم الى يوم تنبجس اخرى جديدة وقد انقضت عدة قرون قبل ان تعمل النهضة من جديد على تفجير ينابيع ، كادت تنضب ، كان نهر الحضارة الذي ينهمر في قرطبة يحفظ جوهر الفكر القديم وينقله الى العالم الجديد » .



الفصل الرابع

جداول التاريخ

السياسي والاجتماعي والثقافي والأثري

للأندلس ٧١٠-١٦٠٩

ان التاريخ الهجري قـد ورد بين قوسين وهو لا يذكر
عندما لا يكون الحادث المقابل مذكوراً من قبـل المصادر
العربية

تواريخ تتعلق بالتاريخ السياسي

٧١٠ (٩١) الاعتراف بطريف في اسبانيا .

٧١١ (٩٢) حملة طارق بن زياد .

٧١٢ (٩٣) عبور موسى بن نصير الى اسبانيا .

٧١٣ (٩٤) توقيع معاهدة بين تيودومير وبين عبد العزيز بن موسى ابن نصير .

٧١٨ ثورة بيلاج Pelage في منطقة الاستوريين Asturies وهو تاريخ محتمل لمعركة كوفا دونغا .

٧٢٩ (١١١) ثورة Munusa في شمال اسبانيا .

٧٣١ (١١٣) ولادة عبد الرحمن الاول .

٧٣٢ (١١٤) المعركة المسماة بمعركة بواتيه (بلاط الشهداء) .

٧٤١ (١٢٣) ثورة عامة يقوم بها بربر اسبانيا .

٧٤٢ (١٢٥) توطين جند بلج من السوريين في اسبانيا .

٧٥٥ (١٣٨) إبحار عبد الرحمن الاول الى Almunacar .

٧٥٦ (١٣٨) بداية امارة عبد الرحمن الاول .

٧٥٩ (١٤٢) تنفيذ حكم الموت بيوسف الفهري والصوميل .

٧٧٧ يلتقي حاكم سرقسطه المسلم بشارلمان في بادربورن Paderborn .

٧٧٨ (١٦٢) حصار سرقسطه من قبل شارلمان .
معركة رونسفو Roncevaux .



تواريخ تتعلق بالتاريخ الاجتماعي والثقافي والأثري

٧١٩ (١٠٠) قرطبة تصبح مقراً للسمح بن مالك .
اعيان من افريقيا يأتون فيستقرون في اسبانيا .
موت Tabi' Hanash as - San'ani

٧٤٢ (١٢٥) جنوب اسبانيا يصبح مرة ثانية مشرقياً
٧٥١ – ٧٥٣ (١٣٤ – ١٣٦) مجاعة في اسبانيا . عودة جزء من السكان البربر الى المغرب .
٧٧٩ (١٦٢) تخريب جزئي لجسر قرطبة .
٧٨٨ (١٧٢) موت عبد الرحمن الاول وارتقاء هشام الاول .
المنـاداة بادريس الاول في واليلا Walila [في (مقاطعة فولوبيليس الرومانية) بالقرب من مكناس حالياً] [١] .
٧٩٣ (١٧٧) مات ادريس الاول مسموماً .
٨١٧ (٢٠٢) مسألة « الضاحية » في قرطبة .
٨٢٢ (٢٠٦) موت الحكم الاول وارتقاء عبد الرحمن الثاني .
٨٤٤ (٢٣٠) استيلاء الفيكنز على اشبيلية .
الفيكنز يصعدون مع الغارون الى تولوز .
٨٧٤ (١٦٨) تشييد الالكزار في قرطبة .
٧٨٥ (١٦٩) العمل على توجيه مجموع اتباع الكنيسة في قرطبة نحو العبادة الاسلامية .

٧٨٨ – ٧٩٦ (١٧٢ – ١٨٠) ترميم جسر قرطبة
تصميم جامع قرطبة الكبير .
٧٩٥ (١٧٩) موت مالك بن أنس .
٨٠٨ (١٩٣) بناء ادريس الثاني لمدينة فاس .
٨١٦ (٢٠٠) ادخال المذهب المالكي لاسبانيا .
٨٢٢ (٢٠٦) وصول زرياب الى اسبانيا وبدء التأثير العباسي .
٨٢٥ (٢١٠) تأسيس مرسيا من قِبل عبد الرحمن الثاني .
٨٢٩ (٢١٤) تشييد جامع اشبيليه الكبير من قِبل عبد الرحمن الثاني .
٨٣١ (٢١٦) تأسيس مارسيا من قِبل عبد الرحمن الثاني .
٨٣٣ (٢١٨) تشييد جامع Jaén الكبير .
صحنان جانبيان أضيفا الى جامع قرطبة الكبير .
٨٣٥ (٢٢٠) بناء قصر ميريدا Mérida من قِبل عبد الرحمن الثاني .
٨٣٩ (٢٢٥) تبادل السفارات بين قرطبة وبيزنطه .
٨٤٨ (٢٣٤) موت الفقيه يحيى الليثي .
٨٥١ استشهاد الفتاتين فلورا وماريا في قرطبة .
٨٥٢ (٢٣٨) وفاة عبد الرحمن الثاني وارتقاء محمد الاول .
٨٥٣ استيلاء النورمان على اورليان وباريز .
٨٥٩ (٢٤٥) استيلاء الفيكنز على الجزيرة Algeciras (ميناء في مضيق جبل طارق).
٨٨٦ (٢٧٣) وفاة محمد الاول وارتقاء المنذر .
٨٨٨ (٢٧٥) وفاة المنذر وارتقاء عبد الله .
٨٩٠ (٢٧٧) ولادة عبد الرحمن الثالث .
٨٩١ (٢٧٨) استيلاء عبد الله على اشبيليه ونهبها .

٩١٢ (٣٠٠) وفاة عبد الله وارتقاء عبد الرحمن الثالث .
٩١٥ (٣٠٢) ولادة الحكم الثاني .
٩١٨ (٣٠٥) وفاة ابن حفصون مثير الاضطرابات .
٨٥٣ (٢٣٨) وفاة الفقيه والمؤرخ ابن حبيب .
٨٥٥ (٢٤١) تأسيس قلعة رباح (Calatrava) .
٨٥٧ (٢٤٣) وفاة زرياب في قرطبة .
٨٥٩ (٢٤٥) بنـــاء جامعي القرويين al-Karawiyin والاندلس في فاس استشهاد ايلوجه Euloge وليوكريسيا Leocritia في قرطبة .
٨٦٤ (٢٥٥) وفاة الفقيه العتبي .
٨٧٣ (٢٦٠) قحط في اسبانيا .
٨٧٥ (٢٦٢) تأسيس تينيس Ténès على ساحل الجزائر من قبل بحارة اندلسيين .
٨٨٣ (٢٧٠) اعادة بناء ليريدا Lérida من قبل ابن قصي Kasiy .
٨٨٦ (٢٧٣) بناء بيت المال في الجامع الكبير بقرطبة .
٨٨٩ (٢٧٦) وفاة الفقيه بكر بن مخلد .
٩٠١ (٢٨٨) تأسيس الجامع الكبير في ليريدا .
٩٠٥ (٢٩٢) وفاة عبد الله بن قاسم بن هلال وهو الذي ادخل مذهب الزاهرية الى اسبانيا .
٩١٣ (٣٠١) تحطيم اسوار اشبيلية وبنـاء الالكازار من قبل سعيد بن المنذر ، الحاكم الاموي .
٩١٥ (٣٠٣) قحط في اسبانيا .
٩٢٠ (٣٠٨) استيلاء المسلمين على مدينة اوسما ، وسان استيبان دي قورماز وكلونيا ومُوَيز .

٩٢٨ (٣١٥) استيلاء عبد الرحمن الثالث على بوباسترو Bobastro .
٩٢٩ (٣١٦) عبد الرحمن الثالث يعلن عن نفسه خليفة وأميراً للمؤمنين .
٩٣١ (٣١٩) استيلاء الامويين على مدينة سوتا Ceuta .
٩٣٢ (٣٢٠) عبد الرحمن الثالث يستولي على طليطله .
٩٣٩ (٣٢٧) انكسار الجيوش الاموية في سيانكاس والخندق Simancas . Alhandega
٩٥١ وفاة روميرو Romero الثاني .
٩٥٤ (٣٤٣) نزول الاسطول الفاطمي بساحل المريا Almèria .
٩١٩ (٣٠٧) طاعون في اسبانيا .
٩٢٨ (٣١٥) بناء دار السكة في قرطبة .
٩٣١ (٣١٩) بناء المقر الاموي في Bilyunash بالقرب من سوتا .
وفاة ابن مسرة في قرطبة .
٩٣٦ (٣٢٥) تأسيس المقر الاموي في مدينة الزهراء بالقرب من قرطبة .
٩٣٧ (٣٢٦) مولد الشاعر ابن هانىء .
٩٤٠ (٣٢٨) وفاة الاديب ابن عبد ربه .
٩٤١ (٣٢٩) امداد جامع قرطبة الكبير بقناة من المياه .
٩٤٢ (٣٣٠) وصول ابو علي القالي الى قرطبة .
٩٤٤ (٣٣٣) تأسيس عبد الرحمن الثالث داراً لبناء السفن البحرية في طورطوزة Tortosa .
٩٤٥ (٣٣٤) قدوم سفارة بيزنطية الى قرطبة .
٩٤٦ (٣٣٥) طاعون في اسبانيا .
٩٥١ (٣٤٠) بناء مئذنة جديدة في جامع قرطبة الكبير .
٩٥٣ سفارة جان دي قورز Jean de Garz الى قرطبة .

٩٥٥ (٣٤٤) وفاة المؤرخ احمد الرازي .

تأسيس مدينة المريا من قبل عبد الرحمن الثالث .

٥٩٧ وفاة اوردونيو Ardono الثالث .

٩٦٠ (٣٤٩) استيلاء جوهر القائد الفاطمي على فاس .

٩٦١ (٣٥٠) وفاة عبد الرحمن الثالث وارتقاء الحكم الثاني .

٩٦٦ (٣٥٥) نزول النورمانديين على ساحل الاندلس الاطلنطيكي .

٩٧٠ استيلاء النورمانديين على سان جاك دي كومبوستيل Saint - Jacqnes de Compostelle

٩٧٦ (٣٦٦) وفاة الحكم الثاني وارتقاء هشام الثاني .

٩٧٨ (٣٦٨) خلع الوزير Mushafi .

٩٨٠ (٣٧٠) قيام المنصور بالاصلاح العسكري .

٩٨١ (٣٧١) غزوة المنصور ضد ليون Léon والاستيلاء على سيمانقاس Simancas .

٩٨٥ (٣٧٤) غزوة المنصور ضد كاتالونيا والاستيلاء على برشلونة .

٩٨٨ (٣٧٧) استيلاء المنصور على مدينة كوئمبر Caïmbre وليون Léon وزامورا Zamora .

٩٥٦ (٣٤٥) بناء جامع طورطوزة الكبير .

سفارة قرطبية الى نافار .

٩٥٨ (٣٤٨) تمين الواجهة الشمالية في جامع قرطبة الكبير .

٩٦١ – ٩٦٦ (٣٥٠ – ٣٥٥) توسيع جامع قرطبة الكبير من قبل الحكم الثاني .

٩٦٦ (٣٥٥) وفاة القاضي منذر بن سعيد البلوطي .

٦٦٨ (٣٥٧) بناء حصن بانيوس دي لا آنسينا Banos de la Encina من قبل الحكم الثاني .

٩٧٠ وفاة حسدي بن شبروط .

٩٧٢ (٣٦٢) سفارة بيزنطية في قرطبة .

٩٧٣ (٣٦٢) وفاة الشاعر ابن هانىء .

٩٧٧ (٣٦٧) وفاة الراوي بن القوطية .

٩٧٨ (٣٦٨) تأسيس المقر الاميري في المدينة الزاهرة قرب قرطبة .

٩٨٧ – ٩٨٨ (٣٧٧) توسيع جامع قرطبة الكبير من قبل المنصور .

مولد المؤرخ ابن حيان .

٩٨٩ (٣٧٨) وفاة الشاعر ابن هانىء .

٩٩٤ (٣٨٤) مولد ابن حزم في قرطبة .

٩٩٧ (٣٨٧) غزوة المنصور ضد غاليسيا . الاستيلاء على سان جاك دي كومبوستيل . انكسار زيري بن عطية في مراكش امام الامويين .

٩٩٩ وفاة ملك ليون Léon برمودو الثاني وارتقاء الفونس الخامس .

١٠٠٢ (٣٩١ – ٣٩٢) غزوة المنصور ضد قشتالة .

وفاة المنصور في المديناشلي Médinaceli .

وصاية عبد المالك المظفر .

١٠٠٣ (٣٩٣) غزوة ضد كاتالونيا .

١٠٠٥ (٣٩٥) غزوة ضد غاليسيا .

١٠٠٦ (٣٩٦) غزوة ضد بامبيلون Pampelune .

١٠٠٧ (٣٩٧) غزوة ضد قشتالة وانتصار كلونيا .

عبد الملك يلقب نفسه بالمظفّر .

١٠٠٨ (٣٩٩) وفاة المظفر . وصاية عبد الرحمن سانشويلو . تنازل هشام الثاني . ارتقاء محمد المهدي . المناداة بسليمان المستعين . وفاة محمد المهدي .

١٠١٠ (٤٠٠) عودة هشام الثاني الى الحكم .

١٠١١ (٤٠١) تأسيس امارة فالنسيا .

١٠١٦ (٤٠٦ – ٤٠٧) استيلاء علي بن حمود على قرطبة . غزوة مجاهد ضد سردينيا . وفاة سليمان المستعين . وفاة علي بن حمود وارتقاء القاسم بن حمود .

١٠٠٥ (٣٩٥) اقامة الخطبة باسم هشام الثاني في جامع القرويين Karawyin الكبير في فاس .

١٠٠٨ (٣٩٩) نهب المدينة الزاهرة .

١٠١٠ (٤٠١) طاعون في اسبانيا .

تدمير قصر الرصافة في قرطبة .

١٠١٢ – ١٠١٣ (٤٠٣) وفاة الشاعر الرمادي وعالِم السير ابن الفرجي .

١٠١٨ (٤٠٨) ارتقاء عبد الرحمن الرابع المرتضى .

وفاة الكونت سانشو غارسيا .

بدء الحملات الصليبية البورغونية ضد اسبانيا المسلمة .

١٠٢١ (٤١٢) ارتقاء يحيى بن علي بن حمود في قرطبة .

١٠٢٣ (٤١٤) ارتقاء عبد الرحمن الخامس المستظهر . ارتقاء محمد الثالث المستكفي .

وفاة اسماعيل بن عبّاد .

١٠٢٧ (٤١٨) ارتقاء هشام الثالث المعتد .

١٠٢٨ (٤١٩) وفاة العبد خيران في ألمريا .

وفاة ملك ليون الفونس الخامس وارتقاء ابنه برمودو Bermudo الثالث .
١٠٣٠ (٤٢٠) سقوط الأسرة الأموية في اسبانيا نهائياً .
عودة زاوي بن زيري Zawi ibn Ziri الى افريقية .
١٠٣٥ وفاة سانشو الكبير وارتقاء فرديناند الاول .
١٠٣٧ وفاة ملك ليون ببرمودو الثالث في معركة تامارون .
١٠٣٨ (٤٢٩) وفاة العبد زهير في ألمريا .
وفاة عباس بن زيري وارتقاء باديس في غرناطه .
١٠٤١ (٤٣٣) وفاة القاضي محمد بن عباد وارتقاء المعتضد في اشبيليه .
١٠٤٣ (٤٣٥) وفاة ابو الحزم بن جوهر وارتقاء ابو الوليد بن جوهر في قرطبة .
١٠٤٤ (٤٣٦) وفاة مجاهد من دينيا Dénia .
١٠٢٧ (٤١٨) وهو التاريخ المقدر لتأليف ابن حزم كتابه طوق الحمامة في مدينة ياتيفيا Jativa .
وفاة ابن برد الاكبر في سرقسطه .
١٠٣٠ (٤٢١) وفاة الشاعر ابن دراج القسطلي .
اعادة بناء اسوار باداجوز Badagoz .
١٠٣٤ (٤٢٦) وفاة ابو عامر بن شهيد .
١٠٤٥ (٤٣٧) وفاة عبد الله بن الافطس في باداجوز وارتقاء المظفر مولد السيد .
١٠٥٣ (٤٤٥) حملة فرديناند الاول ضد مملكة طليطله .
١٠٥٦ (٤٤٨) وفاة وزير غرناطه اليهودي ابن an - Nagharlla .
١٠٥٧ (٤٤٩) باديس يضم المملكة الحودية في مالاقا .

حملة فريديناند الاول ضد مملكة باداجوز . الاستيلاء على
مدينتي فيسيو Visou ولاميغو Lamego .

١٠٥٨ (٤٥٠) ضم امارة روندا لمملكة اشبيلية .

١٠٦٣ – ١٠٦٤ (٤٥٦) استيلاء فرديناند الاول على كوئمبرة Caïmbre
استيلاء النورماند الافرنسيين على بارباسترو .

١٠٦٥ (٤٥٧) استرداد بارباسترو من قبل ابن هود .
وفاة فرديناند الاول ملك قشتالة وليون واقتسام دولتيه .

١٠٦٦ (٤٥٩) حركة لاضطهاد اليهود في غرناطة .

١٠٦٧ (٤٥٩ – ٤٦٠) استيلاء يوسف بن تاشفين على فاس .

١٠٦٨ (٤٦١) وفاة المعتضد . ارتقاء المعتمد . استيلاء العباديين على قرطبة .

١٠٧٢ مقتل سانشو الثاني في زامورا Zamora بعد ان تغلب على
الفونس السادس في غولبيجيرا Galpejera . خلفه الفونس
السادس الذي كان في المنفى في بلاط طليطلة المسلم .

١٠٧٤ زواج السيد وشيمين Chimène .

١٠٧٥ (٤٦٧) وفاة المأمون صاحب طليطلة وباديس صاحب غرناطة .

١٠٥٢ – ١٠٥٣ (٤٤٤) وفاة ابو عمرو الداني في دينيا .

١٠٥٣ (٤٤٥) وفاة ابن برد الاصغر في الميريا .

١٠٥٨ (٤٥٠) مولد ابن خفاجة في الثيرا Alcira .

١٠٦٢ (٤٥٤) تأسيس مراكش .

١٠٦٣ – ١٠٦٤ (٤٥٦) وفاة ابن حزم .
نقل رفات القديس إيزيدور من اشبيلية الى ليون .

١٠٦٦ (٤٥٨) وفاة اللغوي ابن صيدح .

١٠٦٧ (٤٥٩) وفاة الشاعر ابو اسحق الالبيري .

١٠٧٠ (٤٦٢ – ٤٦٣) وفاة سعيد الطليطلي والشاعر ابن زيدون .
١٠٧٦ (٤٦٩) وفاة المؤرخ ابن حيان .
١٠٨١ نفي السيد .
١٠٨٢ (٤٧٥) وفاة المستعين بن هود .
١٠٨٤ (٤٧٧) مولد علي بن يوسف .
١٠٨٥ (٤٧٨) استيلاء الفونس السادس على طليطلة .
١٠٨٦ (٤٧٩) انتصار المسلمين في الزلاقة Sagrajas .
١٠٨٨ (٤٨١) عودة يوسف بن تاشفين الى اسبانيا .
١٠٨٩ (٤٨٢) حصار آليدو Aledo .
١٠٩٠ (٤٨٣) عبور يوسف بن تاشفين للمرة الثالثة . خلع عبد الله صاحب غرناطة .
١٠٩١ (٤٨٤) استيلاء المرابطين على اشبيلية .
نفي المعتمد الى مراكش . وفاة المعتصم صاحب المريا .
١٠٩٢ (٤٨٥) مقتل الخضير بن ذي النون في فالانسيا . اسبانيا المسلمة تصبح من ممتلكات المرابطين .
١٠٩٤ (٤٨٧) استيلاء السيد على فالانسيا . اعدام ابن جحّاف Djahhaf .
١٠٩٩ (٤٩٢) وفاة السيد في فالانسيا .
١١٠٢ (٤٩٥) استيلاء قائد المرابطين مزدالي على فالانسيا .
١١٠٤ ارتقاء الفونس الاول عرش ارغونا .
١١٠٦ (٥٠٠) وفاة يوسف بن تاشفين .
١١٠٨ (٥٠٠) معركة اوكلس Uclès ووفاة سانشو ابن الملك البكر .
وفاة المستعين بن هود صاحب سرقسطة .
١١٠٩ (٥٠٢) وفاة الفونس السادس . ارتقاء الملكة اورّاقة Urraca .

١١٠٩ (٥٠٣) استيلاء المرابطين على طلافير Talavera .

١٠٧٨ (٤٧١) قدوم الشاعر الصقلي ابن حمديس الى اسبانيا .

١٠٨٠ (٤٧٣) بناء الاجافيريا Aljaferia في سرقسطه .

١٠٨١ (٤٧٤) وفاة الفقيه ابو الوليد الباجي في المريا .

١٠٨٣ (٤٧٦) وفاة اللغوي الاعلم من سانتاماريا .

١٠٨٤ (٤٧٧) اعدام الوزير الشاعر ابن عمار .

١٠٩١ (٤٨٤) وفاة الشاعرة ولّادة .

١٠٩٣ (٤٨٦) وفاة الفقيه ابن سهل .

١٠٩٤ (٤٨٧) وفاة عالم الجغرافيا ابو عبيد البكري .

١٠٩٥ (٤٨٨) مولد ابن قزمان . وفاة المعتمد في Aghmat .

١١٠٦ (٥٠٠) وفاة الزهراوي (Abulcacis) .

١١١١ (٥٠٤) استيلاء المرابطين على : سانتاريم ، باداجوز ، بورتو ، ايفورا ليشبونة .

١١١٨ (٥١٢) استيلاء الفونس المحارب على سرقسطه .

١١٢٠ (٥١٤) معركة كوتاندا Cutanda .

١١٢١ (٥١٥) عصيان المهدي بن تمارة في مراكش . بداية حركة الموحدين .

١١٢٦ تتويج الفونس السابع في ليون .

١١٣٠ (٥٢٤) وفاة المهدي والمناداة بعبد الله المؤمن .

١١٣٤ (٥٢٨) انتصار المسلمين في Fraga .

وفاة الفونس الثالث صاحب ارغونا .

١١٣٥ استقلال البرتغال .

١١٤٣ (٥٣٧) وفاة علي بن يوسف .

١١٤٤ – ١١٤٥ (٥٣٩) نهاية حكم المرابطين في اسبانيا . عصر الطوائف الثاني .

ثورة اسلامية في الغارف Algarve .

وفاة تاشفين في اوزان Oran .

١١٤٦ (٥٤٢) المناداة بابن ماردانيش في فالانسيا .

استيلاء المسيحيين على ألمريا :

١١١٣ (٥٠٧) وفاة الشاعر ابن اللبانة .

١١٢٥ (٥١٩) وفاة ابن زهر .

١١٢٦ (٥٢٠) مولد ابن رشد في قرطبة . وفاة الشاعر ابن عبدون والشاعر المسمى « اعمى توديل l'Aveugle de Tudèle . وفاة الكاتب الاندلسي الطرطوشي في الاسكندرية .

١١٣٤ (٥٢٩) مولد ابن ميمون Maïmonide في قرطبة .

١١٣٨ (٥٣٣) وفاة ابن خفاجة وابن باجه Avempace .

١١٤٤ (٥٣٩) وفاة ريفرتر Reverter قائد جيوش المرابطين المسيحية .

١١٤٥ (٥٤٠) تدمير سور قادش من قبل ابن ميمون .

١١٤٧ (٥٤٢) وفاة الاديب ابن بسّام .

١١٤٨ (٥٤٣) وفاة يحيى بن غانية .

استيلاء ريمون بيرانجيه الرابع على فراغا ، ليريدا ، طورطوزا

١٠٥٧ (٥٥٢) استيلاء الموحدين على غرناطة .

استرداد الموحدين لألمريا .

١١٠٩ (٥٠٣) استيلاء المرابطين على طلافير Talavera .

١٠٧٨ (٤٧١) قدوم الشاعر الصقلي ابن حمديس الى اسبانيا .

١٠٨٠ (٤٧٣) بناء الالجافيريا Aljaferia في سرقسطه .

١٠٨١ (٤٧٤) وفاة الفقيه ابو الوليد الباجي في المريا .

١٠٨٣ (٤٧٦) وفاة اللغوي الاعلم من سانتاماريا .

١٠٨٤ (٤٧٧) اعدام الوزير الشاعر ابن عمار .

١٠٩١ (٤٨٤) وفاة الشاعرة ولأدة .

١٠٩٣ (٤٨٦) وفاة الفقيه ابن سهل .

١٠٩٤ (٤٨٧) وفاة عالم الجغرافيا ابو عبيد البكري .

١٠٩٥ (٤٨٨) مولد ابن قزمان . وفاة المعتمد في Aghmat .

١١٠٦ (٥٠٠) وفاة الزهراوي (Abulcacis) .

١١١١ (٥٠٤) استيلاء المرابطين على : سانتاريم ، باداجوز ، بورتو ، ايغورا ليشبونة .

١١١٨ (٥١٢) استيلاء الفونس المحارب على سرقسطه .

١١٢٠ (٥١٤) معركة كوتاندا Cutanda .

١١٢١ (٥١٥) عصيان المهدي بن تمارة في مراكش . بداية حركة الموحدين .

١١٢٦ تتويج الفونس السابع في ليون .

١١٣٠ (٥٢٤) وفاة المهدي والمناداة بعبد الله المؤمن .

١١٣٤ (٥٢٨) انتصار المسلمين في Fraga .

وفاة الفونس الثالث صاحب ارغونا .
١١٣٥ استقلال البرتغال .
١١٤٣ (٥٣٧) وفاة علي بن يوسف .
١١٤٤ — ١١٤٥ (٥٣٩) نهاية حكم المرابطين في اسبانيا . عصر الطوائف الثاني .
ثورة اسلامية في الغارف Algarve .
وفاة تاشفين في اوران Oran .
١١٤٦ (٥٤٢) المناداة بابن ماردانيش في فالانسيا .
استيلاء المسيحيين على ألمريا :
١١١٣ (٥٠٧) وفاة الشاعر ابن اللبانة .
١١٢٥ (٥١٩) وفاة ابن زهر .
١١٢٦ (٥٢٠) مولد ابن رشد في قرطبة . وفاة الشاعر ابن عبدون والشاعر المسمى « اعمى توديل l'Aveugle de Tudèle . وفاة الكاتب الاندلسي الطرطوشي في الاسكندرية .
١١٣٤ (٥٢٩) مولد ابن ميمون Maïmonide في قرطبة .
١١٣٨ (٥٣٣) وفاة ابن خفاجة وابن باجه Avempace .
١١٤٤ (٥٣٩) وفاة ريفرتر Reverter قائد جيوش المرابطين المسيحية .
١١٤٥ (٥٤٠) تدمير سور قادش من قبل ابن ميمون .
١١٤٧ (٥٤٢) وفاة الاديب ابن بسّام .
١١٤٨ (٥٤٣) وفاة يحيى بن غانية .
استيلاء ريمون بيرانجيه الرابع على فراغا ، ليريدا ، طورطوزا
١٠٥٧ (٥٥٢) استيلاء الموحدين على غرناطة .
استرداد الموحدين لألمريا .

١١٥٨ ارتقاء الفونس الثامن .
١١٦٣ (٥٥٨) وفاة عبد المؤمن وارتقاء ابو يعقوب يوسف .
١١٧١ (٥٦٧) وفاة ابن ماردانيش .
١١٨٤ — ١١٨٥ (٥٨٠) غزوة ضد سانتاريم ووفاة ابو يعقوب وارتقاء ابو يوسف يعقوب .
١١٩٥ (٥٩١) انتصار المسلمين في العرق ألاركوس (Alarcos) .
١١٩٨ — ١١٩٩ (٥٩٥) وفاة ابو يوسف وارتقاء محمد الناصر .
١٢١٢ (٦٠٩) انكسار المسلمين في لاس نافاس دي طولوزة (العقاب) .
سقوط عبيدة وبايزيد .
١١٥٠ (نحو) نظم قصيدة السيد .
١١٥٤ (٥٤٨) عالم الجغرافيا الادريسي ينهي عمله .
١١٥٩ (٥٥٥) وفاة الشاعر ابن قزمان .
١١٦١ (٥٥٦) تأسيس عبد المؤمن لمدينة جبل طارق .
١١٦٢ (٥٥٧) وفاة عبد المالك بن زهر Avenzaar .
١١٦٥ (٥٦٠) مولد المتصوف محيي الدين بن العربي في مرسيا .
١١٧١ (٥٦٧) ابو يعقوب يبني جامعاً كبيراً وجسراً على الوادي الكبير في اشبيليه .
١١٧٧ (٥٧٢) وفاة الشاعر الرصافي في مالاقا Malaga .
١١٧٩ (٥٧٥) وفاة ابن خير .
١١٨٣ (٥٧٨) وفاة ابن باشكول Basgkuwal .
١١٨٥ (٥٧١) وفاة الفيلسوف ابن طفيل في مراكش .

١٢٥٨(٦٥٦) ارتقاء ابو يوسف يعقوب في مراكش .

١١٩٨ — ١١٩٩ (٥٩٥) مولد ابن الابار . وفاة ابن رشد في مراكش .

١٢٠٤ وفاة ابن ميمون Maïmonide .

١٢٠٧(٦٠٤) وفاة الاديب ابن الشيخ البلاوي .

١٢١٤ وفاة الفونس الثامن .

١٢١٧ ارتقاء فرديناند الثالث صاحب قشتالة .

(٦٢٥) ثورة ابن هود في الشرق الاسباني .

١٢٣٠ (٦٢٧-٦٢٨) الاستيلاء على ماجورك Majorque .

نهاية حكم الموحدين في اسبانيا .

١٢٣١ (٦٢٨ — ٦٢٩) سقوط ميريده وباداجوز .

وفاة ادريس المأمون من الموحدين .

المناداة بمحمد الاول الغالب .

١٢٣٦ (٦٣٣) استيلاء فرديناند الثالث على قرطبة .

١٢٣٧ (٦٣٤ — ٦٣٥) انكسار المسلمين في آنيشة Anisha . استيلاء محمد الاول على غرناطه .

١٢٣٨(٦٣٦) استيلاء جايم الاول Jaime صاحب ارغونا على فالانسيا .

١٢٤٣(٦٤٠) استيلاء جايم الاول صاحب ارغونا على مرسيا .

١٢٤٦(٦٤٤) الاستيلاء على Jaén والاستيلاء على Javita .

١٢٤٨ (٦٤٥ – ٦٤٦) الشرق الاسباني يقع كله في ايدي المسيحيين .

استيلاء فرديناند الثالث على اشبيليه .

وفاة فردينانْد الثالث وارتقاء الفونس العاشر .

١٢١٤(٦١٠) مولد ابن سعيد في Alcala la Real .

تأسيس الفونس الثامن لجامعة بالانسيا Palancia .

١٢٥٢ تأسيس الفونس التاسع لجامعة سالامنك Salamanque .

١٢١٧(٦١٤) وفاة ابن جبير في الاسكندرية .

١٢٢٠(٦١٧) تشييد برج الذهب Tour de l'Or في اشبيلية .

١٢٢٢(٦١٩) وفاة الاديب الشريشي ash - Sharishi في مدينة Jarez .

١٢٢٧(٦٢٤) جدب في اسبانيا .

١٢٣٥(٦٣٣) وفاة الاديب ابن ديهياء Ibn Dihya .

١٢٤٠(٦٣٨) وفاة محي الدين بن العربي في دمشق .

١٢٤٨(٦٤٦) وفاة عالم النبات ابن البيطار في دمشق .

١٢٥١(٦٤٩) وفاة الشاعر ابن سهل .

ترجمة كليلة ودمنة الى اللغة القشتالية .

١٢٥٧(٦٥٥) استيلاء الفونس العاشر على نيبلا Niébla .

١٢٦٢(٦٦٠) استيلاء الفونس العاشر على قادش Cadiz .

١٢٧٠(٦٦٨) سان لويس Saint Louis اثناء حصار تونس .

١٢٧٣(٦٧١) وفاة محمد الاول النصري .

١٢٧٦ وفاة Jaim الاول عاهل ارغونا .

١٢٨٤(٢٨٢) وفاة الفونس العاشر في قشتالة .

١٢٨٧(٦٨٦) الاستيلاء على مينورك Minorque .

١٢٩٢(٦٨٩) استيلاء سانشو الرابع على Tarifa .

١٣١٩ ارتقاء الفونس الحادي عشر على العرش .

١٣١٤(٧١٣) ارتقاء النصري اسماعيل الاول .

١٣١٩(٧١٩) انتصار المسلمين في اليكوم Alicum .

١٣٣١(٧٣٢) ارتقاء ابو الحسن في فاس .

١٢٥٤ تأسيس الفونس العاشر في اشبيليه لمدرسة التعليم اللاتينية والعربية .

١٢٥٥(٦٥٣) وفاة المؤرخ الاسباني البيّاسي في تونس .

١٢٥٨(٦٥٦) (تقريباً) وفاة الاديب ابن عميره .

١٢٦٠(٦٥٨) التنفيذ بابن الابّار في تونس .

١٢٦٩(٦٦٨) وفاة الصوفي ابن صابعين الاسباني في مكة .

١٢٧٤(٦٧٢) وفاة النحوي الاسباني ابن مالك في دمشق .

١٢٧٦(٦٧٥) تشييد فـــاس الجديدة ومقر اقـــامة البونية بالقرب من الجزيره .

١٣٠٠ تأسيس Jaim الثاني لجامعة لاريدا Lérida في ارغونا .

١٣٠٦(٧٠٦) تأليف المؤرخ الدهري للبيان المغرب .

١٣٠٨(٧٠٨) وفاة ابن الزبير في غرناطه .

١٣٣١(٧١٣) مولد ابن الخطيب في Loja .

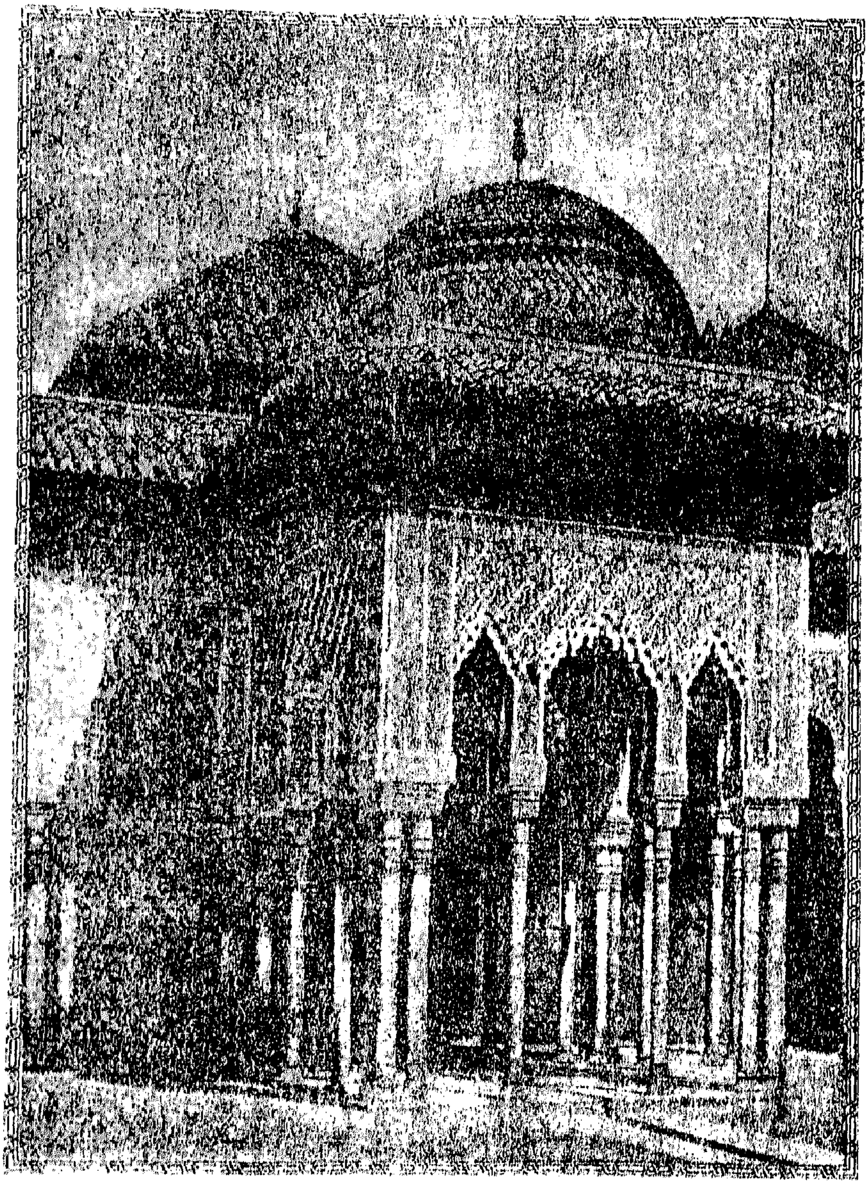
١٣١٥ وفاة رامون لول Ramon Lull .

١٣٣٢(٧٣٢) مولد عبد الرحمن بن خلدون في تونس .

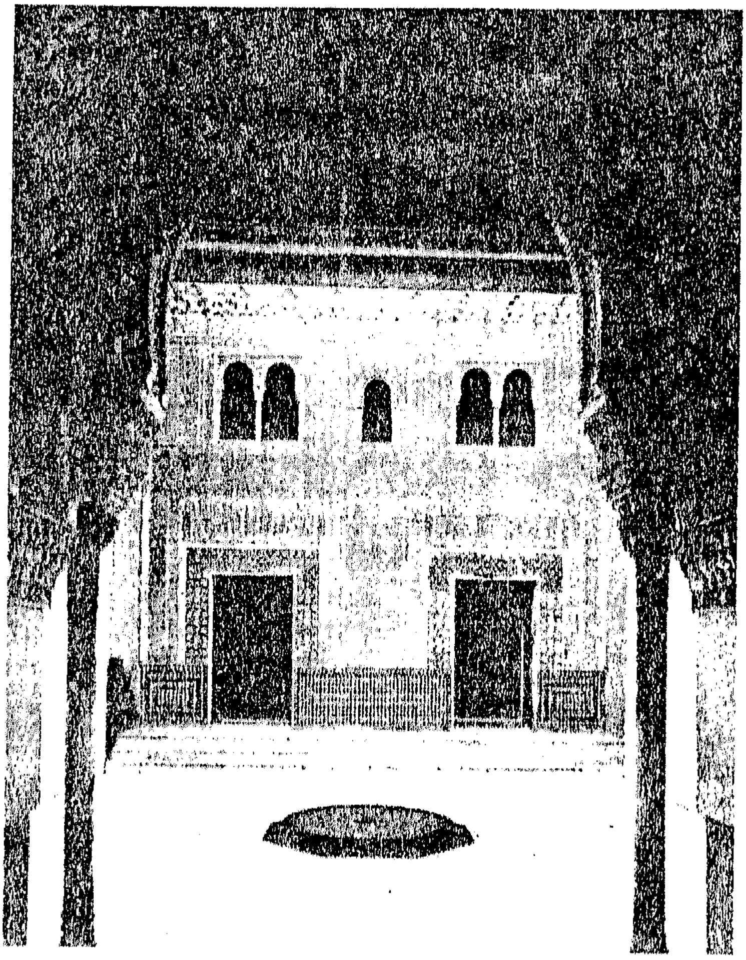


الفصل الخامس

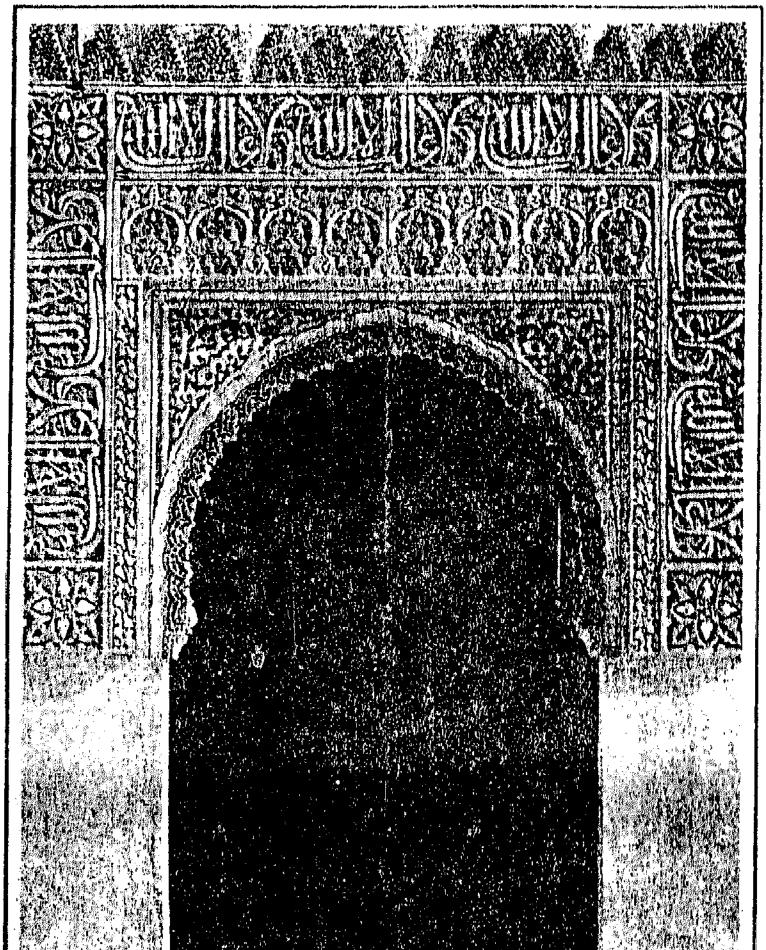
آثار أندلسية



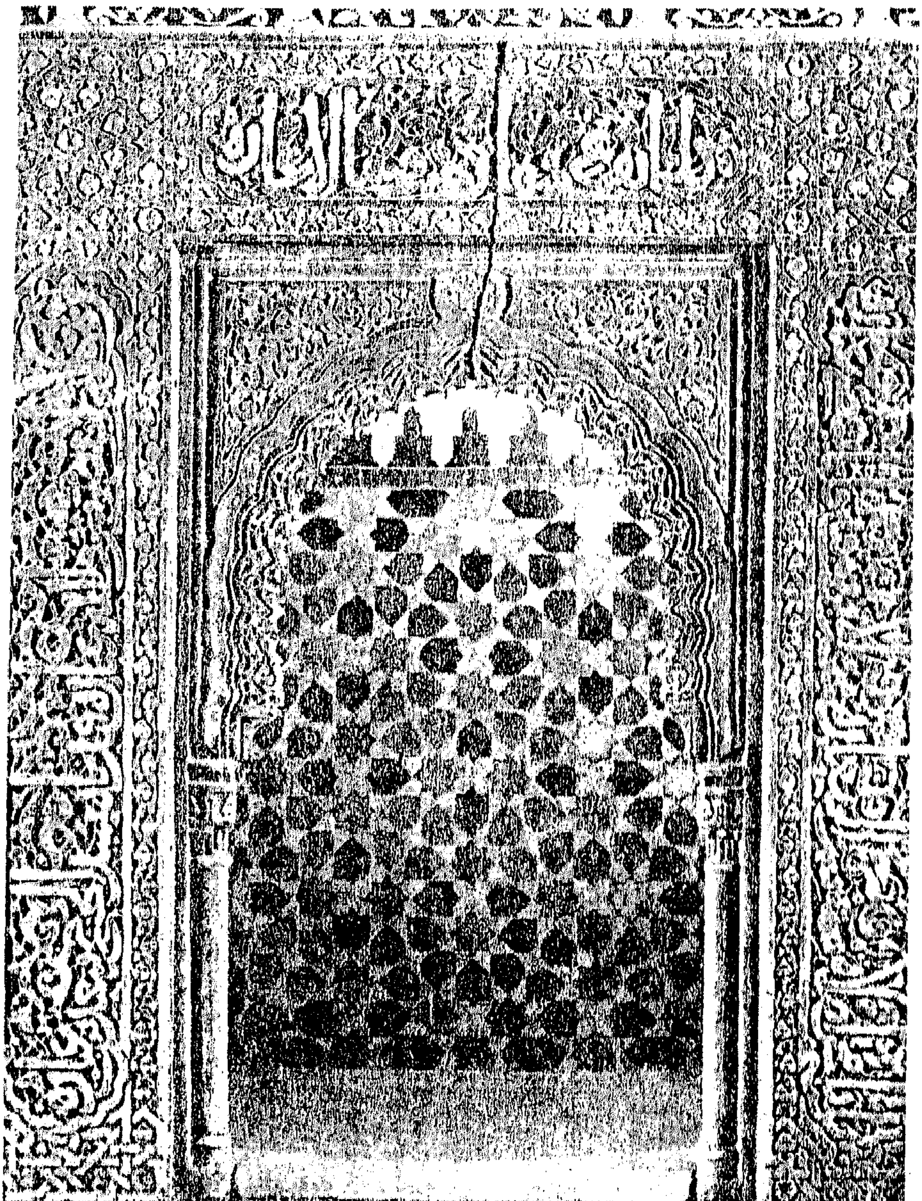
قصر الحمراء في غرناطة



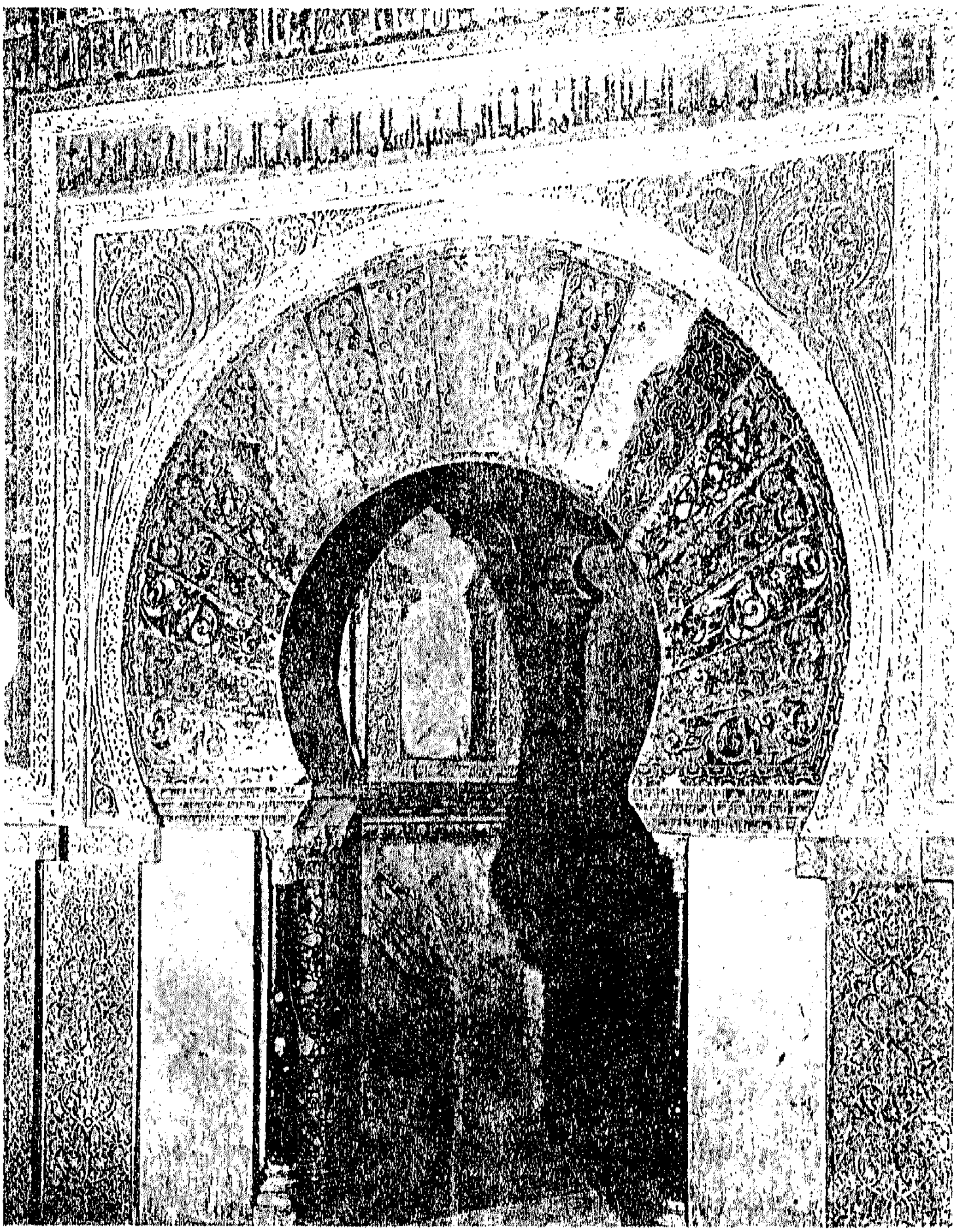
أحد قصور غرناطة



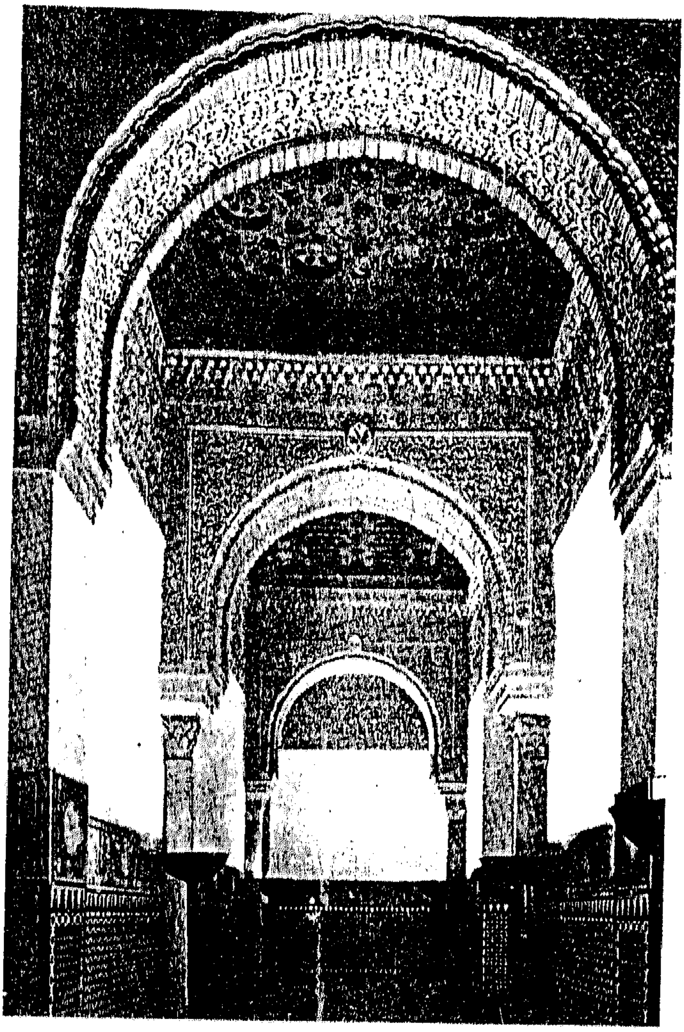
بهو السفراء قمارش



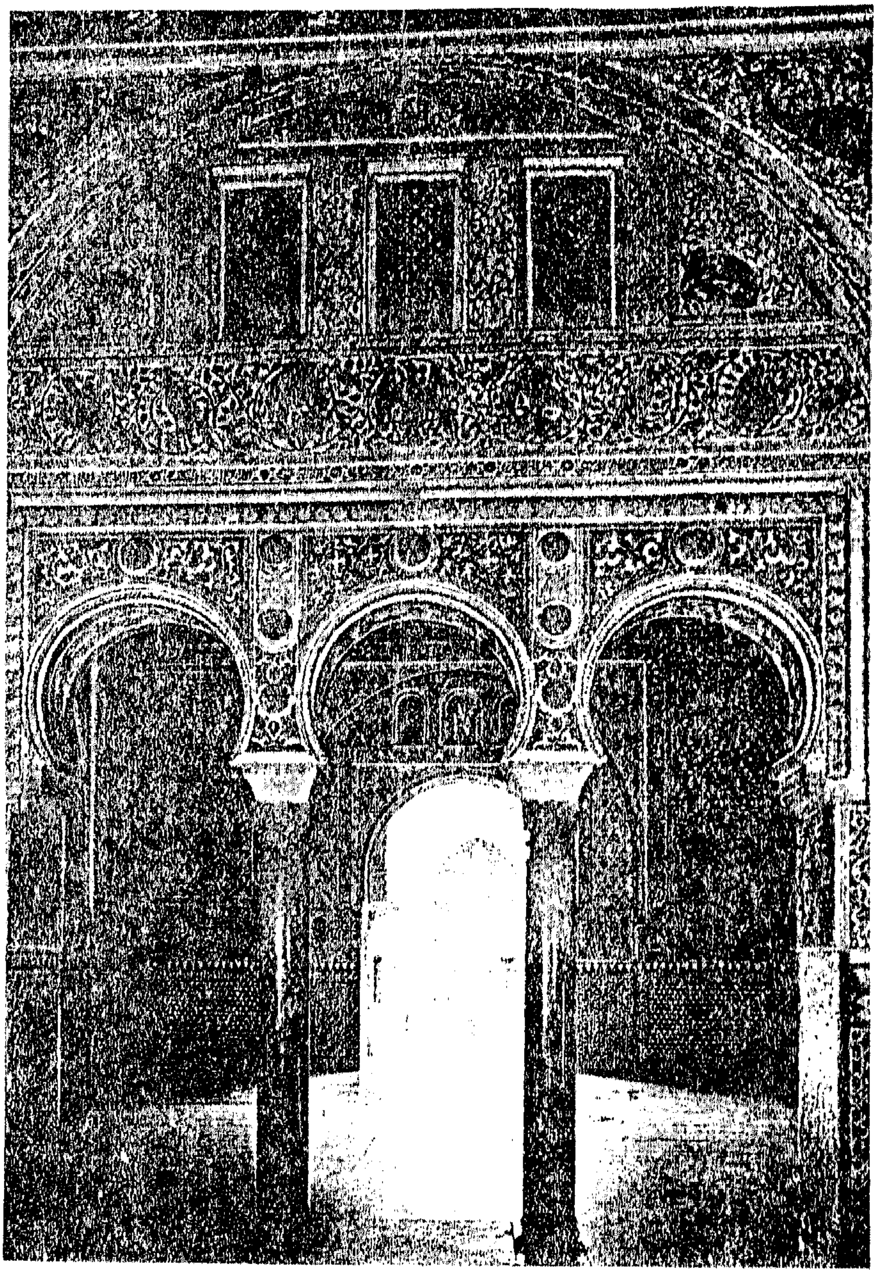
مشكاة لوضع الاباريق في قاعة البركة



محراب جامع قرطبة



الأقواس والأعمدة داخل أحد القصور



قاعة السفراء

الفصل السّادس

قائمة مجملة بالمؤلفات النقدية

١٨٦١ ر. دوزي ، تاريخ مسلمي اسبانيـــا حتى فتح الاندلس من قبل
المرابطين (٧١١ – ١١١٠) ٤ مجلدات – طبعــة جديدة نقحها
وأعاد طبعها ليفي بروفنسال ، ليد ١٩٣٢ وهو مؤلف مـا يزال
كلاسيكياً .

١٨٨١ ر. دوزي ، تحريات في تاريخ اسبانيا وآدابها إبان العصور الوسطى،
ثالث طبعة ، ليد باريز ، مجلدان ١٨٨١ . يحتوي على عدة ذكريات
هامة ، عن السيد ، عن النورمانديين في اسبانيا الخ .

١٨٩٧ ج . سيمونيه ، تاريخ المغـــاربة في اسبانيا ، مدريد ١٨٩٧ ،
١٩٠٣ معالجة جبارة لموضوع واحد إلا أنهـا مغرضة في اغلب
الاحيان .

١٩٠٣ ف . كوديرا ، دراسات نقدية في تاريخ العرب – الاسبان ،
ثلاث مجلدات ، سرقسطه ومدريد ١٩٠٣ – ١٩١٧ . دراسات
تفصيلية رصينة ، غنية بالوثائق والمستندات .

Hamenaje à D. Francisco codera en su jubilacion ١٩٠٤

del profesorado Estudios de erudicion oriental .

سرقسطه ١٩٠٤ . مجموعة تحتوي على عدة ذكريات هامة تتعلق بالحضارة الاسبانية – الاسلامية .

١٩١١ ر . ألتاميرا ، تاريخ اسبانيــا والحضارة الاسبانية ، ٤ مجلدات برشلونة ١٩١١ .

١٩١٩ ت . و . ارنولد ، Th. W. Arnold , Preaching of islam

a History of the Propagation of the muslim Faith ,

طبعة ثانية ، لندن ١٩١٣ . مؤلف اساسي .

السيد غومس مورينو M. Gomez Moreno , Iglesias mozarabes

و Arte espanol de los siglos IX - XI

مدريد ١٩١٩

عمل مدهش عن الآثار الاسلامية في الفن المغربي .

١٩٢٠ أ. بلّيستيروس ، تاريخ اسبانيا وتأثيره في التاريخ العــام ، جزء ثاني . وثالث ، برشلونة ١٩٢٠ - ١٩٢٢ ، مؤلف كامل جداً ، مع قائمة مفصلة بالمؤلفات .

١٩٢٢ أ. كونزالس بالانثيا The Western Caliphate , dans

The Cambridge Medieval History المجلــد الثالث ، كمبردج ١٩٢٢ ص ٤٠٠ – ٤٤٢ .

١٩٢٣ أ. بُو ّاصتّو ّناد ، ما هو جديد في اغنية رولاند ، باريز ١٩٢٣ ،

مؤلف قابل للمناقشة إلا أنه يحتوي على وجهـات نظر جديدة ومفيدة .

١٩٢٥ أ. كونزالس بالانثيا ، تاريخ اسبانيا المسلمة . اطلع على الطبعة الثالثة (برشلونة ١٩٣٢) لهذا المختصر البسيط إ. لامبيرت ، طليطله ، باريز . مجموعة ، مدن الفن الشهيرة ، ١٩٢٥ . احياء بديع لطليطله المسلمة .

١٩٢٦ كل سانشيز ألبورنوز Estampas de la vida en Leon durante el siglox مدريد ١٩٢٦ ، دراسة تاريخية على نحو روائي غير انهـا مفيدة جداً . ح. مارسية ، مختصر الفن الاسلامي . فن البنـــاء . تونس ، الجزائر ، مراكش ، اسبانيا ، صقلية ، مجلدان ، باريس ١٩٢٦ — ١٩٢٧ ؛ مؤلف أساسي في تاريخ الفن الاسباني — المغربي ، مع موجزات تاريخية على تمام الروعة .

١٩٢٧ السيد آسين بالاثيوس
Abenhàzem de cordoba y su Historia de las ideas religiosas
المجلد الاول ، مدريد ١٩٢٧ . مقالة ممتازة عن ابن حزم .
إ. مال ، فن وفنانون في العصور الوسطى ، باريس ١٩٢٧ . مع نظرات مشرقة عن اصول الفن الروماني .

١٩٢٨ ر. ألتـــاميرا ، تاريخ الحضارة الاسبانية ، مدريد ١٩٢٨ ، مختصر جداً أ. كونزالس بالانثيا ، تاريخ الآداب العربيــة — الاسبانية ، برشلونة ١٩٢٨ ، مختصر جيد ، إلا أن أسماء الاعلام للأسف ترد فيه كما وردت في النقل الاسباني التقليدي عن العربية .

ح. ريبرا تارّاغو ، Disertaciones y opuscules,
مجلدان ، مدريد ، ١٩٢٨ ، يضم أهم الخواطر للاستاذ الاسباني ،
بعضها هام جداً .

١٩٢٩ السيد م. آنتونيا La carte literaria de Alhaquem II en Cordoba,
San Lorenzo de El-escorial, 1929.
وهو كتاب مفيد جداً .

هـ. ج. فارمر ، تاريخ الموسيقى العربية ، لندن، ١٩٢٩ . من احسن
الاختصاصيين الحاليين في الموضوع .

ر. منيديز بيدال La Espana del Cid, مجلدان ، مدريد ١٩٢٩ ،
اثر محكم على الرغم من أنه ينحو منحى « السيد » .

١٩٣٠ السيد م. آنتونيا ، اشبيلية وآثارها العربية San Lorenzo de
El-escorial ١٩٣٠ ، طبعة وترجمة مقاطع من تاريخ ابن الصاحب
as-Salat المتعلقة بمشيّدات الموحدين في اشبيلية .

إي. غارثيا غومس ، قصائد عربية – اندلسية Poémas arabigo –
andalouces ، مدريد ، ١٩٣٠ . اختيار موفق جداً للقصائد
الاسبانية – العربية مع مقدمة مفيدة .

ل. هالفن ، البرابرة ، باريس ١٩٣٠ . من الدرجة الاولى .

١٩٣١ السيد آسين بالاثيوس El islam cristianizado مدريد ، ١٩٣١ . هو
أهم من عنوانه .

أ. غونزالس بالانثيا، الاسلام والغرب ، مدريد ١٩٣١ ، جدول مفيد
بأهم التأثيرات .

إ. ليفي بروفنسال ، كتابات عربية اسبانية ، باريز – ليد ١٩٣١ .

أ . ر . نيكل ، A book containing the risal A known as The Dove's Neck - ring about love and lovers , باريس ١٩٣١ . ترجمة لطوق الحمامة لابن حزم مع دراسة تمهيدية ، تنتهي بنتائج قابلة للمناقشة . .

١٩٣٢ ل . هالفن ، نهضة اوروبا ، باريز ١٩٣٢ ، ممتاز .

إ . ليفي بروفنسال ، اسبانيا المسلمة في القرن العاشر ، نظم وحياة اجتماعية ، باريز ١٩٣٢ .

كل . سانشز ألبورنوز ، اسبانيا والاسلام ، ترجمة ب . غينارد في المجلة التاريخية ، مجلد CLXIX ، باريز ، ١٩٣٢ : بعض من الصفحات يساوي مجلداً ، ظهرت في البداية في الاسبانية تحت عنوان : اسبانيا والاسلام Espana y El Islam في مجلة الغرب عدد LXX ، مدريد ١٩٢٩ .

هـ . تيرّاسيه ، الفن الاسباني – المغربي من منابعه في القرن الثالث عشر ، باريز ١٩٣٢ . نص محكم ، وتبجيل عظيم .

١٩٣٣ إي . لامبيرت ، الفن الاسباني والفن الروماني ، في مجلة Hespéris ، مجلد XVII ، ١٩٣٣ ص ٢٩ – ٤٣ ، مقالة كثيرة الايحاء .

أ . ر . نيكل El Cancionero de Aben Guzman مدريد ١٩٣٣ . طبع وترجمة جزئية لديوان ابن Guzman على ألا يستفاد منه إلا بحذر شديد . انظر جـ . س . كوكن في مجلة Hespéris ، مجلد XVI ص ١٦٥ – ١٦٩ .

١٩٣٤ جـ . كالميت ، العالم الاقطاعي ، باريز (١٩٣٤) . معلومات ممتازة عن حالة المسائل الراهنة .

إ . غارسيا غومس ، Bagdad y las los reinos de Taifas, في مجلة الغرب Revista de occidente ، عدد CXXV11 مدريد ، ١٩٣٤ .

ر . غارثينا غومس ، Elagio del Islam espanol مدريـــد — غرناطه ، ١٩٣٤ . ترجمة لرسالة As-sakundi وتعليق عليها .

ر . مينيند بدال Historia y epepeya ، مدريد ١٩٣٤ مجموعـة مقالات متعلقة بتاريخ العصور الوسطى السياسي والادبي .

حـ . اورتيغـا غاسيِّت Abenjaldun nos revela el secreto في مجلة El Espectador ، مجلد ثامن ، مدريد ١٩٣٤ .

١٩٣٥ ر . بلاشير ، كتاب « مقولات الأمم » ، باريز ١٩٣٥ . ترجمـة لطبقات الأمم لسعيد الطليطلي .

الاسلام والغرب في مجلة cahiers du Sud ، مارسيليا ، آب — ايلول ١٩٣٥ . مجموعة مقالات ذات قيم متفاوتة .

١٩٣٦ ش . ديهل و جـ . مارسيه ، العالم الشرقي من عام ٣٩٥ الى ١٠٨١ (جزء ثالث من كتاب تاريخ العصور الوسطى من التاريخ العام لمؤلفه كلوتز) ، باريز ١٩٣٦ . يحتوي على فصول ممتعـــة عن اسبانيا المسلمة .

إ . ليفي بروفنسال « مذكرات » عبـــد الله آخر مـــلوك غرناطة .

Ziride ، مدريد - غرناطه ، ١٩٣٦ طبع وترجمة لنص هام جداً عن تاريخ العلاقات المسيحية - المسلمة في اواخر القرن الحادي عشر اكتشف في مكتبة جامع القيروان al-Karawiyin في فاس .

١٩٣٧ ر. مينينديز بيدال ، الشعر العربي والشعر الاوروبي في مجلة Revista Cubana كانون الثـــاني - آذار ، ١٩٣٧ . من المحتمل انه يصدر احكاماً قاطعة في موضوع مسألة جد معقدة . انظر ج. سيروت في المجلة الاسبانية ، جزء XXXIX ، ١٩٣٧ ، ص ٤٣٠ - ٤٣٢ .

هـ. بيريز ، الشعر الاندلسي ، في العربية الكلاسيكية في القرن الحادي عشر : مميزاته العامة وقيمته كمصدر ، باريز ١٩٣٧ ، مقالة مفصلة بتوسع ومنصفه الى حد بعيد ؛ إلا أنها قد لا تعطي لمؤثرات المشرق مكانها ونصيبها .

هـ. بيرين ، محمد وشارلمان ، بروكسل - باريز ١٩٣٧ . مؤلف ظهر بعد موت هـــذا العالم البلجيكي ، ولو ان واضعه أكمله لكان من الممكن ان نعيب عليه نقصاً في المستندات التاريخيـــة عن الغرب الاسلامي .

ف. لوت ، الغزوات البربرية ، باريز ١٩٣٧ . من بينها غزو اسبانيا من قبل العرب ، نظرات قابلة للمناقشة في الغالب . التزود بالوثائق عن اسبانيا المسلمة يعتمد كله على كتاب اسبانيا المسلمة في القرن العاشر لصاحبه ليفي بروفنسال .

إ. ليفي بروفنسال السيد كما ورد في التاريخ ، في المجلة التاريخيـــة جزء CLXXX باريز ، ١٩٣٧ ص ٥٨ - ٧٤ .

١٩٣٨ الموسوعة الاسلامية ، الطبعة الافرنسية ، (مجلد رابع ومجلد اول من المتمم) انتهت في ١٩٣٨ .

إ. ليفي بروفنسال ، دراسات في التاريخ الاسباني – الاسلامي .

إ. ليفي بروفنسال ، معلومات من اجل تاريخ اجتماعي واقتصادي . للغرب المسلم في القرون الوسطى (العصر الوسيط) .

المجلات

حوليات معهد الدراسات الشرقية في الجزائر

الاندلس

النشرة الاسبانية

بيزنطه

فكر

الجريدة الأسيوية

مجلة الغرب

المجلة الاسبانية

ملاحظات وحواشي الكتاب

الفصل الأول

(١) ش. ديهل Ch. Diehl ، بيزنطة : عظمة وانحطاط ، باريس ، ١٩٢٠ صفحة ١ .

(٢) انظر كتابي اسبانيا المسلمة في القرن العاشر صفحة ٨ وما بعدها .

(٣) المصدر نفسه . صفحة ١٩ .

(٤) انظر دراستي عن : تبادل السفارات بين قرطبة وبيزنطة في القرن التاسع في بيزانسيون Byzantion ، جزء XII بروكسل ١٩٣٧ ، صفحة ٨ — ٩ .

(٥) السيد غودفروا — ديمومبين Gaudefroy - Demombynes ، المؤسسات الاسلامية ، باريس ١٩٢٥ صفحة ١٢٥ — ١٣٦ .

(٦) انظر كتابي اسبانيا المسلمة في القرن العاشر صفحة ٤٥ — ٤٧ .

(٧) انظر مقالتي عن Le Cid de l'histoire في مجـلة تاريخية ، باريس ١٩٣٧ .

(٨) انظر مقالتي عن الفونس السادس والاستيلاء على طليطلة (١٠٨٥) في مجلة Hesperis جزء XII ١٩٣١ صفحة ٣٣ — ٤٩ .

(٩) انظر كتابي تأملات في دولة المرابطين في بداية القرن الثـاني عشر في مجلد الاحتفـال بانقضاء خمسين عاماً على تأسيس كلية الآداب في الجزائر . الجزائر ١٩٣٢ صفحة ٣٠٧ — ٣٢٠ .

(١٠) انظر ليفي — بروفنسال في نص تاريخي جديـد : « المسند » لابن مرزوق ١٩٢٥ صفحة ٢ .

(١١) وعلى الخصوص تلك التي في Testour وقـد أفرد لها السيد جورج مارسيه دراسة ما تزال تحت الطبع .

(١٢) انظر ليفي — بروفنسال في ، المراكشيون وماضيهم في مجلة الفن الحي ، باريس ١٩٣٠ صفحة ٨١٥ — ٨١٦ .

(١٣) غولد زيهر .

(١٤) انهـا موجودة في منتخبات من تاريخ العرب السياسي والأدبي في الأندلس للمقري ، وهي مجموعة منتخبات ثمينة جـداً لأنها حفظت لنا كثيراً من الشذرات المختارة من مؤلفات عربية اسبانية مفقودة اليوم . ولا تستعمل الترجمة الانـكليزية التي قام بها P. De Gayangos إلا بحذر شديد لأنها مليئة بالأخطاء .

(١٥) في منتخبات المقري نفسها . فقـــد ترجمت الى القشتالية من قِبل السيد غارشيا غومس في رثاء الاسلام الاسباني ، مدريد – غرناطة ١٩٣٤ . وفي الفرنسية بقلم ا. لويا La « Risala » d'as - Sakundi في مجلة Hesperis جزء XXII ١٩٣٦ صفحة ١٣٣ – ١٨١ .

الفصل الثاني

(١٦) انظر كتابي اسبانيا في القرن العاشر صفحة ٢٢ .

(١٧) G. Marçais مختصر الفن الاسلامي جزء اول صفحة ٢٠٦ .

(١٨) انظر هـ . بيريس النخـلة في اسبانيا ، ملاحظات مسندة على النصوص العربية ، في مجموعة مقالات متفرقة غودوفروا – ديمو مبينس Gaudefroy - Demombynes القاهرة ١٩٣٨ صفحة ٢٢٥ – ٢٣٩ .

(١٩) والى ذلك عزا دوزي اهميـة كبرى في شبه الجزيرة الايبيرية في الجزء الاول من كتابه تاريخ المسلمين في اسبانيا .

(٢٠) حول هـذا النص ، الذي انوي نشره في المستقبل في سلسلة من الوثائق غير المنشورة من تاريخ الامويين في اسبانيا ، انظر كتابي تبادل السفارات صفحة ٤ .

(٢١) على الاخص توسيعات الجامع الكبير في قرطبة وقد قدم لنـا في ذلك علاقـة جديدة كل الجدة السيد ايلي لامبيرت مستنداً على

وثائق استطعت ان اقدمها له . (تاريخ جامع قرطبة الكبير في القرنين الثامن والتاسع من النصوص غير المنشورة ، في حوليات معهد الدراسات الشرقية في كلية الآداب بالجزائر جزء ثاني ، باريس ١٩٣٦ صفحة ١٦٥ — ١٧٩) .

(٢٢) لمحة عن زرياب الموسيقار موجودة في الموسوعة الاسلامية ، متمم صفحة ٢٨٥ — ٢٨٦ بتوقيع H. G. Farmer .

(٢٣) نحن اليوم على اطلاع واسع حول تركيب هـذا الطعام وصنعته بفضل طباعة مختصر عربي صغير في الموصل عام ١٩٣٤ من بداية القرن السابع (١٣) بعنوان « كتاب الطبيخ » . ولدينا فيما عـدا ذلك مختصران عن الطبخ العربي في الاندلس وهمـا غير مطبوعين ويبدو انهما من عصر الموحدين .

(٢٤) انظر A. Gonzalez Palencia الاسلام والغرب صفحـة ٤٨ — ٤٩ بحسب المقري .

(٢٥) وقد خصص ر. بلاشير دراسة لهذا الشاعر ، بعنوان : احـد الممهدين للثقافة العربية في القرن العـاشر : سعيد البغدادي ، في مجلة Hespéris جزء X ١٩٣٠ صفحة ١٥ — ٣٦ .

(٢٦) انظر كتابي اسبانيا الأسلامية في القرن العاشر صفحة ١٨٣ — ١٨٤ .

(٢٧) احمد زكي مبحث في العلاقات بين مصر واسبانيا اثنـاء الاحتلال الاسلامي في Homenage codera صفحة ٤٥٥ — ٤٨١ .

(٢٨) انظر كتابي عن الخطوط العربية في اسبانيا صفحة ١١٦ — ١١٧ .

(٢٩) ليفي — بروفنسال ، صحيح البخاري ، مصور نقلا عن مخطوط لابن سعدى الذي قطن مرسيا عام ٤٩٢ هـ (١٠٩٩ م) باريز ١٩٢٨ .

(٣٠) هـ. بيريس H. Pérès الشعر الأندلسي في العربيــة الكلاسيكية في القرن الحــادي عشر : مظاهره العامة وقيمته كمستندات ، باريز ١٩٣٧ .

(٣١) ج. مارسيه G. Marçais الفن الاسلامي الاسباني في مجلة Hespéris جزء XXII ١٩٣٦ صفحة ١٠٧ — ١٠٨ .

(٣٢) انظر A. Gonzalez Palencia تاريخ الأدب العربي — الاسباني صفحة ٢٠٣ .

(٣٣) ترجمة ر. بلاشير صفحة ١٢٥ .

(٣٤) انظر كتابي اسبانيا المسلمة في القرن العاشر صفحة ٢٣٣ — ٢٣٤ .

(٣٥) المصدر نفسه صفحة ٢٣٤ .

(٣٦) انظر ليفي بروفنسال ، مخطوط من مكتبة الخليفة الحكم الثاني في مجلة Hespéris جزء XVIII ، ١٩٣٤ صفحة ١٩٨ — ٢٠٠ .

(٣٧) مقولات الأمم ترجمة ر. بلاشير صفحة ١٢٦ .

الفصل الثالث

(٣٨) انظر هـ. بيرين H. Pirenne محمد وشارلمان صفحة ١٤٣ – ٢٦٠ .

(٣٩) Cl. Sanchez - Albarnoz اسبانيا والاسلام صفحة ٥ .

(٤٠) فيما يتعلق بجميع هذه المسألة انظر كتابي اسبانيا المسلمة في القرن العاشر صفحة ٣٣ وما يليها .

(٤١) انظر دوزي تاريخ مسلمي اسبانيا طبعة جديدة جزء اول صفحة ٣١٧ – ٣١٨ . ذكر ذلك ايضاً Simonet و Gonzalez Palencia , و F. Lot Ferdinand الخ .

(٤٢) انظر كتابي اسبانيا المسلمة في القرن العاشر صفحة ٣٥ . يجب تذكر ايضاً زواج الفونس السادس القشتالي بأميرة مسلمة (ليفي – بروفنسال « Mara Zaida » زوجة الفونس السادس القشتالي وولدهما في مجلة Hespéris جزء XVIII ، ١٩٣٤ صفحة ١ – ٨ .

(٤٣) هـذه الحوادث واردة بالتفصيل في كتابي تبادل السفارات في مجلة Byzantion ١٩٣٧ .

(٤٤) انظر كتابي اسبانيا المسلمة في القرن العاشر ، صفحة ٢١٧ .

(٤٥) المصدر نفسه صفحة ١٥٢ وما يليها .

(٤٦) » » » ٤٩ ملاحظة ١ .

(٤٧) » » » ٢٨ — ٣١ .

(٤٨) » » » ٥١ ملاحظة ٢ (ناحية جعلها مشهورة F. Lot في كتابه الغزوات البربرية صفحة ٦٧) .

(٤٩) نجـــد تقريبات مماثلة في الاسلام والغرب لصاحبه A. Gonzalez Palencia ص ٢٧ — ٢٩ ؛ وفي اسبانيا والبرتغـــال ، لصاحبه J. B. Trend ص ١٩ — ٢٧ ؛ وفي الغزوات البربرية لصاحبه F. Lot ص ٧٠ — ٧١ ؛ وفي دراسة اكثر تفصيلاً ارجع الى الفهارس الخاصة في R. Dozy H. W. Engelmann ، قاموس الكلمات الاسبانيـــة والبرتغالية المشتقة من العربية ، (الطبعة الثانية ، ليد ١٨٦٩) ؛ D. L. Eguilaz (غرناطة ١٨٨٦) ومن جهـــة اخرى وللآثار الرومانية على لغـــة المخاطبة العربية الاسبانية ، درست من قبـــل J. Simonet مدريد ١٨٨٩ . وهي تظهر على نوع خاص شاملة في أبحاث البوليس المدني الاسباني التي نشرها المؤلف وحده او بالتعاون مع السيد G. S. Colin .

(٥٠) قوائم ثمينة جداً قدمها A. Gonzalez Palencia إلا أنها نشرت في الاغلب على نحو خاطىء وذلك في المجلد التوطئة المؤلفـــة الجميل تحت عنوان Los Mozarabes deTolede en los Siglos في القرن

الثـــاني عشر والثالث عشر ، مدريد ، ١٩٣٠ . انظر كذلك الملاحق المفيـــد التي وضعها Cl. Sanchez - Albornaz لكتابه : Estampas de la vida en Leon durante ص ١٨٦ — ٢١١ .

(٥١) انظر الاستدعاء الإيحائي بحسب تخيل Cl. Sanchez - Albornoz في Estampas ص ١٤٣ — ١٤٤ .

(٥٢) انظر Cl. Sanchez - Albornoz في كتابه اسبانيا والاسلام ص ١٠ : « لم تستعمل الممالك المسيحية ابداً مدة تقرب من ٤٠٠ سنة سوى العملات العربية والفرنجية وبقي ملوك قشتالة بعد ذلك ما يقرب من قرن كامل حتى ضربوا عمـــلة ذهبية . وكان تقليد العملات الفرنجية والعربيـــة يجري بأمانة سواء من اجـل ضرب القطع الفضية في اواخر القرن الحادي عشر أم من اجل سك العملات الذهبية في الثلث الاخير من القرن الثاني عشر » .

(٥٣) انظر ليفي بروفنسال السيد كما ورد في التاريخ . ص ٧٢ .

(٥٤) انظر R. Dozy في كتابه : تحريات في تاريخ اسبانيا وآدابهـا في العصور الوسطى ، طبعة ثالثة ، جزء اول ، ص ٢٠٤ .

(٥٥) في كتابه Iglesias mozarabes ، مذيل بألبوم يحتوي على عـدة منسوخات مصورة .

(٥٦) الفن الاسباني — المغربي والفن الروماني في مجلة Hespéris ، جزء XVII ، ١٩٣٣ ، ص ٤٢ — ٤٣ .

(٥٧) H. Pérès الشعر الاندلسي صفحة ٤٧٥ .

(٥٨) في المجلد الاول من كتابه ابن حزم القرطبي ص ٤٨ وما يليها .

(٥٩) يمكن قراءة ذلك في مقدمة K.Pétrof لطبعته لكتاب طوق الحمامة (ليد ١٩١٤ ص XVII - XVI) .

(٦٠) انظر كتابي اسبانيا المسلمة في القرن العاشر ص ٣٧ – ٣٩ .

(٦١) لقد لخص هذه المناقشات السيد M. Asin نفسه في كتاب بعنوان La escatologia musulmana en la « Divina Comedia » Historia y critica de una Polémics مدريد ١٩٢٤ (ملخصة من Boletin de la Real Academia Espanda) اما نظرية السيد M. Asin فهي بتاريخ ١٩١٩ .

(٦٢) الشعر العربي والشعر الاوروبي في مجلة Revista Cubana عدد كانون الثاني – آذار ١٩٣٧ ولست اعرف هذا المبحث حتى الآن إلا من خلال العرض الذي قدمه له السيد G. Cirot في Bulletin Hispanique لعام ١٩٣٧ ص ٤٣٠ – ٤٣٢ .

(٦٣) تاريخ اسبانيا بقلم لويس برتراند ، في مجموعة ا. فايارد ، « الدراسات التاريخية الكبرى » باريز ١٩٣٢ صفحة ٣٠٥ – ٣٠٦ .

(٦٤) اسبانيا والاسلام ترجمة P. Guinard صفحة ٥ .

(٦٥) السيد سانشز – البورنوز يمين : « اساتذة الدراسات العربية في اسبانيا الحالية ، ريبيرا Ribera ، آسين Asin ، غومس مورينو

Gomez Moreno » ... ومن العدل ان نضيف الى هذا التكريم متضلعين آخرين في العربية من الاسبان ، اقل سناً ، وكذلك المدرسة الشرقية الافرنسية التي جددت التنقيب العلمي في الاندلس منذ حوالي عشر سنين . وبخاصة في الرباط ثم الجزائر .

طبع هذا الكتاب على مطابع

دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر

بيروت - شارع سوريا

تليفون ٢٣١٠٣٠ ص. ب ١٢٩٠